موقع فلسطيني:

كتاب

الانتفاضة في شعر الوطن المحتل

طلعت سقيرق

* * * *

الإهداء

إلى فلسطين العائدة

رغم أنف الغزاة ..

إلى كلّ حبة رمل لا بدّ

أن ترى شمس النهار

بعد زوال الاحتلال ..

طلعت

* * * * *

الفهرس:

* * * * *

مدخل

قبل قراءة بعض القصائد التي كتبت عن الانتفاضة في الوطن المحتل ، لابدّ من التوقف عند سؤال يقول : أين وقف الشعر الفلسطيني المقاوم من الانتفاضة قبل أن تكون واقعاً ملموساً في الزمان والمكان ..

في هذا السياق تبرز كلّ أقانيم الشعر الفلسطيني المقاوم لتصبّ في مجرى تشكيل إجابة عن السؤال المطروح . ومنذ البداية يمكن القول إن هذا الشعر شعر صورة شمولية في التركيز على حركة الفعل ونموّه وتصاعده على طريق مقاومة الاحتلال . وهي الصورة التي تطورت وطورت كل محاور الفعل ، لتكون صورة الفعل المقاوم في كلّ صفاته ومحاوره وأبعاده التي ترسّخت وتجذرت فيما بعد.

منذ البداية ، كان الشعر الفلسطيني المقاوم ، شعر ثورة بكلّ معنى الكلمة . من هنا كان تركيزه على كلّ أقانيم التشبث بأرض فلسطين العربية ، وعلى ما يعنيه هذا التشبث من فعل وفاعلية في الدفاع عن الذات العربية الفلسطينية المتداخلة مع تاريخ كلّ حبة تراب في فلسطين . وكان هذا التركيز منصباً في الوقت ذاته على ضرورة تحريك الفعل الثوري بكلّ ما يحمل من استمرارية في مسار مقاومة الاحتلال ، لإعادة الحق إلى نصابه ..

في هذا المجال كان طبيعياً أن يتم التركيز أيضاً على مقوّمات وأبعاد الشخصية العربية الفلسطينية، بما لها من خصوصية محلية وامتداد عربي . وذلك لترسيخ الوقوف والثبات في وجه المحاولات الإسرائيلية التي عملت وسعت منذ البداية إلى السير على طريق تذويب وتشتيت هذه الشخصية ، ليسهل ضربها ونفيها فيما بعد .

كما أكّد هذا الشعر على ضرورة الالتصاق بالواقع المعاش ، والانطلاق من خلاله . وكان بذلك خير معبر عن هموم ومعاناة ، وتطلعات وطموحات شعبه . فكان الواقع بذلك رئة هذا الشعر ، والمؤثر الفاعل في بنائه وفي توجهه وتطلعه هل يعني هذا أنه دخول في موضوعة الانتفاضة قبل وقوعها ؟؟

الإجابة لا يمكن أن تأخذ حيزاً ضيقاً يتحدد في واحدة من كلمتي ((نعم)) أو ((لا)) إذ أنّ حركة الشعر الفلسطيني المقاوم في مجموعها يجب أن تتوحّد في صياغة هذه الكلمة أو تلك .. فإلى أين نصل .. ؟؟..

من الخطأ الوقوع في شرك الوقوف عند خط فاصل يحدّد نهاية فترة وبداية فترة أخرى في هذا الشعر ، أو العمل على عقد مقارنة بين السابق واللاحق من شعر الوطن المحتل . فالشعر الفلسطيني المقاوم ما زال واحداً في تدفقه واستمراريته وكل مفاصل تواصله . وهو بطبيعة الحال ، يضمّ الشعر الذي كتب في زمن الانتفاضة ، كما يضمّ ما كتب قبلها . ولا تأتي تسمية ((شعر الانتفاضة)) التي تطلق أحياناً ، إلاّ في مجال التحديد أو الإشارة ، إلى القصائد التي كتبت في زمن الانتفاضة ..

شعر ((الانتفاضة)) إذن جزء لا يتجزأ من الشعر الفلسطيني المقاوم ، وكل قصيدة كتبت عن الانتفاضة في الوطن المحتل ، إنّما تأتي في إطار متابعة الطريق الذي سار عليه الشعر الفلسطيني المقاوم ، وهي بشكل طبيعي تركّز على محاور ثابتة لا تتغير في كلّ خطوة جديدة تخطوها ، وفي كل إضافة تضيفها انطلاقاً من معطيات الحدث المشتعل بركاناً في وجه الاحتلال ..

في هذا المسار ، لا يمكن للشعر الفلسطيني المقاوم المكتوب قبل زمن الانتفاضة أن يكون بعيداً أو منفصلاً عن زمن كان يؤسس له في كلّ كلمة من كلماته . فقد عمل هذا الشعر بشكل ثابت على ترسيخ وتصعيد فعل المقاومة والمجابهة والتحدي ، واستمرارية فعل النهوض . وما كانت الانتفاضة إلاّ كل ذلك .

طبيعي أنّ الشعر الفلسطيني المقاوم ، لم يكن وحيداً فريداً في هذا المجال ، فقد اجتمعت كلّ الجزئيات والمفاصل ، أدباً وفناً ، واقعاً وحياة ، لتشكل أرضية تسعى إلى دعم ورفد ومتابعة طريق التغيير وتحقيق الأمل . وكان الشعر في كثير من الأحيان ، أقرب من سواه إلى ضمير الشعب من جهة ، وإلى رصد مجريات وحركة الحياة اليومية لهذا الشعب من جهة أخرى ، مما أتاح له فرصة التطلع إلى ما هو قادم بعين مفتوحة قادرة على الإبصار بقوة تكاد تكون شديدة التميز .

هل يعني هذا أنّ الانتفاضة كانت مختزنةً في هذا الشعر بمعناها الحرفي ؟؟

في سياق الإجابة ، نقف عند ثلاثة نماذج تثير بعض التساؤلات والإشارات الهامة .. فماذا تقول هذه النماذج ..؟؟..

في قصيدة له حملت عنوان ((الانتفاضة)) ونشرت في العام 1982 ، يقول الشاعر فتحي القاسم :

((ينتفض الركب الهادر كالبركان
ويقتلع الطغيان .. ويمشي
رغم البؤس الغامر
والأحزان
ويمشي .. مهما كان)) .

ويقول الشاعر عبد الناصر صالح في قصيدة له حملت عنوان ((الانتفاضة)) أيضاً ، ونشرت في العام 1983 :

هذا أوانك فانتفضي
موجة .. شعلة .. عائدهْ
هذا أوانك
موعدك الأخضر الثرّ
أيتها المقلة الشّاهدهْ ..)).

وفي قصيدة أخرى له حملت عنوان ((كتابة على جدران أم الفحم)) ونشرت في العام 1984 يقول :

هو الحبّ سيل من الانتفاضة
يملأ خارطة الوطن المتعطّش
يزرع في القلب أيقونة الغضب المستفيض
تؤوب التقاطيع
تأتي الطيور
إذا الفجر أمطر ناراً على الليل
أمطر موتاً

وأشعل كلّ المنابر)) ..

فهذه النماذج تكاد تكون واحدة من صلب القصائد التي كتبت عن الانتفاضة في الوطن المحتل . وفي محاولة إسقاط تاريخ كتابة أي نموذج منها ، فإننا لا نشك لحظة بأنه كتب في زمن الانتفاضة وعنها ..

هل يعني هذا أنّ الشعر الفلسطيني المقاوم استطاع أن يتنبأ بأنّ الانتفاضة قادمة . وهل يعني أنّ الشاعر الفلسطيني المقاوم كان قادراً على قراءة وقائع المستقبل بمثل هذه الدقة ؟؟.. وهل كان هذا الشاعر محرضاً وداعياً إلى إشعال حدث الانتفاضة بكلّ ماله من امتدادات .. وكيف تطابقت مثل هذه النماذج ، على هذا الشكل ، مع قصيدة المقاومة التي كتبت في زمن الانتفاضة ؟؟

إنّ هذه النماذج ، ورغم تأكيدها بهذا الشكل أو ذاك على مفردة ((الانتفاضة)) فهي لا تختلف في شيء عن كل نماذج الشعر الفلسطيني المقاوم ، بما كان له من إصرار على تصعيد الفعل الثوري ، وصولاً إلى حدث الانتفاضة بمعناه المواجه والمجابه والمتحدي والمقاوم . ومثل هذا الإصرار على تصعيد الفعل الثوري وضرورة الوصول به إلى أقصى حد ، لم ينفصل يوماً عن أي محور من محاور هذا الشعر . وطبيعي أن يكون الشعر ((المقاوم)) شعر دعوة وحث وتحريض على تصعيد الفعل الثوري ، وإلاّ لما كان لمفردة ((المقاوم)) أي معنى ..

وهذه النماذج ، كما الشعر المقاوم في مجموعه ، تتنبأ من خلال قراءة الواقع المعاش والدخول في جزئياته ، إلى جانب الغوص المتعمق في معطيات الحياة اليومية ، وفي صورة وأبعاد الحركة المتسارعة ، لتضع اليد بثقة على وقائع كثيرة من معطيات وأبعاد حركة المستقبل . وبذلك يحقق هذا الشعر خطوة متقدمة في قراءة صفحات الحركة الشعبية المتلاحقة في حاضرها ومستقبلها .

تجدر الإشارة هنا ، إلى أنّ شاعر الوطن المحتل، لم يكن في يوم من الأيام مراقباً محايداً يعيش الكلمة بمعزل عن حرارة المشاركة في الفعل . وكما هو معروف ، فقد تعرض شعراء المقاومة وما زالوا ، للتعذيب والاعتقال والإقامة الجبرية ، وما إلى ذلك . وكان عليهم أن يواصلوا العطاء والإبداع والمشاركة في الفعل وفي كل الظروف والحالات، وهذا ما فعلوه .

من هنا القدرة على قراءة المستقبل بوعي كبير ، والتعامل مع الأيام القادمة ، وكأنها أمام العين . وهذا ما جعل حدث ((الانتفاضة)) متواجداً في الشعر الفلسطيني المقاوم قبل وقوعه بزمن ، وعلى هذا الشكل أو ذاك . ولا ينكر أنّ مثل هذا التواجد قد يكون نوعاً من ((التحريض)) و ((الدعوة)) و ((الاستنهاض)) ولكنه لا يمكن أن يكون منفصلاً عن قدرة الشاعر على فهم المستقبل ، وقراءة الكثير من جوانبه ..

إذن طبيعي أن يأتي الشعر الفلسطيني المقاوم المكتوب في زمن الانتفاضة متصلاً كلّ الاتصال بما سبقه من شعر في الوطن المحتل ، ليؤكّد على كل جوانب الصورة الإيجابية الزاخرة بكل المحاور الداعية إلى المقاومة والثبات والصمود ..

وطبيعي أن يضيف هذا الشعر إضافات كثيرة إلى ما سبق ، من خلال التداخل والتلاحم مع الحدث الكبير بكل امتداداته ومعطياته وأبعاده . هذا الحدث الذي غيَّر وبدّل الكثير والكثير ..

فماذا نقرأ في هذا الشعر . ماذا تقول القصيدة المكتوبة في زمن الانتفاضة من خلال علاقتها مع هذا الحدث الكبير والرائع . كيف تعامل هذا الشعر مع بطل الانتفاضة . كيف تعامل مع الحجر كسلاح فعّال في المواجهة . ماذا قال في خطابه المتحدّي للعدّو الصهيوني. ثم كيف رسم صورة الحاضر والمستقبل من خلال ارتباطهما بالانتفاضة ؟؟

محاور كثيرة يفرضها الشعر الفلسطيني المقاوم المكتوب في زمن الانتفاضة وتأتي الفصول القادمة في سياق رصدها ودراستها ، وتقديم صورة وافية عنها ..

* * * * *

الفصل الأول:

الانتفاضة وأقانيم النهوض

لم تكن الانتفاضة التي انطلقت كبيرة منذ يومها الأول ، حدثاً عادياً بسيطاً ، يمكن لمساحة الاهتمام أن تتجاوزه إلى سواه. فقد استطاعت منذ اللحظة الأولى أن تشكل زخماً نضالياً كبيراً ، شدّ إليه الأنظار والأسماع والانتباه في كلّ مكان.

وللحقيقة ، فلم يكن متوقعاً أن يحدث مثل هذا النهوض الجبار على هذا الشكل المذهل من التحدي والمجابهة والمقاومة ، ومن خلال مثل هذه الصورة الشعبية المعبأة بالحركة والقوة والإقدام ، والمجازفة إلى أقصى حد . كما لم يكن متوقعاً في أي حال ، أن تأخذ الطفولة البريئة الطرية هذا الشكل من البطولة ، واختصار العمر ، وركوب أمواج المخاطرة بقلوب لا تعرف الوجل والتراجع . وفي الوقت ذاته ، لم يكن متوقعاً ، أن يتحول الحجر الموجود في كل مكان ، إلى قذيفة وسلاح خطير يستطيع أن يجابه أعتى الأسلحة وأقواها ، وأشدّها فتكاً .

كانت الانتفاضة نهوضاً جباراً كسر كل حواجز التوقع ، وجاءت على شكل فيضان من الفداء والتضحية والاستبسال . فكان لها وقعها المدوّي في كل مكان ، وصورتها المشرقة المتميزة في كل عين . لقد شكلت لوحة استثنائية في تاريخ النضال حين اتحدت كل الخطوط والألوان في لوحة الغليان الشعبي المسلح بالصدور والزنود والحجارة . فكأنما كانت الانتفاضة فتحاً جديداً في باب الحروب والكفاح والنضال ، حين وضعت قانوناً جديداً يقول إنّ الحجر في يد صاحب حق وقوة وبأس ، قادر على كسر أعتى الأسلحة .

لا ينكر هنا أنّ الانتفاضة نتاج مرحلة طويلة من النضال والتحدي والمجابهة والمقاومة ، وأنها تضع خطواتها على طريق يتصل بما قبله كل الاتصال ، ولكن يبقى للانبهار وقعه ومكانه وتأثيره ، وتبقى لهذا الحدث فرادته وقوته وصورته الوطنية المتكاملة في مجابهة الاحتلال ، والتي استطاعت أن تجعل الشعب كله مقاتلاً دون استثناء ، كما استطاعت أن توظف الطبيعة والمكان والزمان لصالحها . وفي الوقت ذاته وظفت كل التجارب النضالية السابقة لتصبّ في تعبئة ورفد التجربة النضالية الجديدة . فكانت بحق هذا النهوض الجبار الذي امتلك الحاضر وصوره الزاخرة بكل الألوان والخطوط ، وامتلك كل رصيد الماضي بما ضم من تجارب ومخاض وحركة دائبة على طريق المقاومة.

لا يمكن هنا اختصار الأسباب المؤدية إلى قيام الانتفاضة بكلمات بسيطة محددة ، كما لا يمكن وضع عدد من الأسباب في قائمة طويلة أو قصيرة ، إذ من الممكن اعتبار كل السنوات السابقة مخاضاً ومحركاً وأسباباً بما حملت وضمت من عذابات ومعاناة وتحمل ، ومن نضالات طويلة . وإذا كان مثل هذا النهوض كبيراً ومحيراً كونه جاء على هذا الشكل من الانفجار والامتداد والقوة ، فإن قراءة وقائع الحياة اليومية ، ووقائع كل النضالات والتحديات والمقاومة والتي سبقت الانتفاضة ، إنما تؤدي وتشير إلى أنّ هذه الانتفاضة قادمة على هذا الشكل أو ذاك .

كانت الانتفاضة خطوة نهوض كبيرة وعملاقة اختزنت كل الخطوات والتجارب السابقة ، لتنطلق دفعة واحدة في وجه الاحتلال ، بما تحمل من أقانيم الاستمرارية والقدرة على المجابهة والتحدي والاحتفاظ بالنفس الطويل . كما كانت قمة في تأجيج الحاضر ودفعه إلى أعلى وتيرة من الغليان والتحدي .

في مثل هذه الألوان الزاخرة بالحياة والقوة والنهوض والتحدي ، تحرك الشعر الفلسطيني المقاوم ، ليضع الكلمة إلى جانب الصدور والزنود والحجارة ، وليصوغ القصيدة بمداد الإصرار والفداء والتضحية ، فكان التداخل مع هذا النهوض من خلال التأكيد على المحاور التالية :

أولاً ـ النهوض ونهاية الجراح :

هل كان على الانتفاضة أن تختزن كلّ مساحات الدم والجراح في مسافات نهوضها واستمراريتها وقوة خطواتها المثابرة والمتلاحقة على طريق النضال والمقاومة والتحدي .. أم كان عليها أن تضع حداً لهذه الجراح ليكون الزمن حافلاً بالأمل والتفاؤل والإصرار على أقانيم الفرح .. ؟؟

يأتي الجواب على ذلك في قصيدة ((الصهيل)) للشاعر عبد الناصر صالح ، حيث يبرز إلى الوجود هذا الجواد المحمل بكلّ أبعاد الأصالة والعمق ، ليمدّ الخطوة والنظرة والصهيل على الطريق ، وليصر على معنى التواصل الوثيق بين كلّ معطيات الحاضر والماضي . يأتي ذلك من خلال تلاحمه مع الجراح والعذابات والأحزان من جهة ، ومع صورة النهوض المعبر عن نهاية مساحة الحزن ، وبداية الزمن الجديد المليء بالفرح من جهة أخرى .

في الذاكرة ، ومع صهيل الجواد ، يأخذ الشاعر في استحضار المعاناة : ((تنهش أطرافي مخالب الغزاة / تأكل اللحم وتقطع العروق)) لتكون محركاً ومحرضاً ، وواحداً من أسباب الانتفاضة . ثم وعلى مساحة الذاكرة والتذكر ، يبرز الدم في قوله : ((دمي سال على وجه التراب / ولم يزل هناك ترتوي الأشجار منه / تحتمي به الطيور من مخاوف الدمار والحريق)) ليكون سياجاً وبقاء في الأرض والشعور والاستمرارية . فالدم على هذا الشكل ، لا يعني الجراح بصورتها المثيرة للألم والتفجع، بل يشير أكثر ما يشير إلى معنى الفداء والتدفق على طريق النضال والتضحية .

الانتفاضة تختزن كل هذه المسافة ، وتعلن عن تمسكها بها ، وإصرارها عليها ، كما تعلن عن نهوضها من خلال الجراح ، لتبدأ مرحلة جديدة تتمثل بالقول : ((كفاك يا جراحنا جراح / كفاك وانظري)) حيث على الجراح بشكلها الفاجع والدامع والمأساوي أن تنتهي ، وعلى مساحة الدم بمعناها النضالي والكفاحي والمقاوم أن تبقى مستمرة ومتحركة وخصبة في الذاكرة ، وعلى أرض الواقع . فالشاعر يريد للجراح أن تنهض مع هذا النهوض ، وأن تنهي كلّ أوجاع ومعاناة الفترة السابقة ، ومن ثم أن تتوحد في صورة الانتفاضة الناهضة، حيث : ((هنا الأطفال يحملون حبهم على الأكتاف / يحملون القدس والجليل / يطاردون الجند / والرصاص فوقهم كندف الثلج)) ..

فالنظر إلى هؤلاء الأطفال يجب أن يضع حداً لكل معاني الجراح الساكنة ، وأن يضع حداً لكلّ عذابات الفترة السابقة . حيث الخطوات تتجه كلية نحو الحرية ، ولا مكان هنا لغير الأمل والتفاؤل . لذلك يدخل الجواد مرة أخرى ، ليتلو صهيله مع الزمن الجديد الناهض : ((ويصهل الجواد / يصهل الجواد / تبرق العيون في الجبال والوهاد / والمحار

/ وينهض الأطفال والنهار / يحمل في جفونه البريق / يرفض أن يعود للحصار / هو النهار يا حبيبتي / يرفض أن يساوم / لابدّ أن يقاوم)) ..

فالصهيل هنا يتحول إلى الزمن الجديد ، إلى الانتفاضة الممتدة والمستمرة ، ويقرر قطع طريق العودة إلى الوراء ، وإلى حالة الحصار السابقة . من هنا الدخول في حالة الربط المحكم بين الحاضر والمستقبل ، الحاضر بما يحمل من نهوض ثوري ونضال دؤوب مستمر ، والمستقبل بما يحمل من ثمر وعطاءات ووعد . ولأنّ الشاعر يقرأ الواقع بوعي ، ويرى إلى أهمية وقوة وقدرة الانتفاضة ، فإنّ المستقبل يأتي عنده على صورة ((وبيارات أهلي / تغصّ بالثمار / تغصّ بالثمار)) حيث الأمل بالوصول إلى الخلاص والحرية أكيد . وهذا ما جعل البيارات بما تشكل من مساحة نفسية عند الإنسان الفلسطيني عامة ، تغص بالثمار . إنها تغص بكل مشاعر الفرح ووصول الإنسان الفلسطيني إلى ثورة الواقع الذي يريده أن يكون في الغد .

في هذا السياق يرى عبد الناصر صالح أنّ الانتفاضة نهار بما رسخت من صور مشرقة ، وتطور نضالي فعال وكبير . وهذه الانتفاضة مضت في طريقها بوعي ودراية ، ولا يمكن لها أن تعود للوراء ((يرفض أن يعود للحصار)) كما رفضت ونسفت كل محاولات إجهاضها أو تغيير مسارها .

إنه النهوض المرتبط بهذا الجواد الأصيل الذي يتداخل مع الانتفاضة ، ليكون النهار دون فاصلة . فالانتفاضة في هذا النهوض ، تختصر المسافة لتكون الحاضر والمستقبل في الوقت ذاته ، ولتكون الخطوة والوصول . ومثل هذه النظرة التفاؤلية ، تنطلق بالتأكيد من الثقة المطلقة بعطاءات الانتفاضة .

ثانياً ـ النهوض من رحم المأساة :

قد يلتقي هذا المحور في جزء منه مع المحور السابق ، في التأكيد على الانطلاق والنهوض من خلال الجراح والمأساة ، وفي الإشارة إلى بعض أسباب الانتفاضة . ولكنه يختلف حين يدخل في إطار رسم ملامح الإنسان الفلسطيني الذي ولد في زمن الاحتلال ، وصاغته التجارب بكل أشكالها وألوانها .

في قصيدته ((من رحم المأساة ولدنا)) يأخذ الشاعر حاتم جوعيه في التأكيد على الولادة من رحم الوجع ، حيث :

((من رحم المأساة ولدنا ورضعنا من / ينابيع الفداء / ودرجنا صبية بين البراكين واللظى / والرماد / ونزعنا عن عيون الأرض الشوك / والقتادْ)) ..

لتكون البداية مع المأساة وفي حضنها . ولكن مثل هذه البداية والولادة، لم يكن لها معنى الحزن لا غير . حيث يأخذ الرضيع حليبه من ينابيع الفداء ، ويكبر بين البراكين واللظى ، ويحمي الأرض من كلّ شر . على ذلك تكون ملامح مثل هذا الإنسان مليئة بالإصرار والقوة والثبات والقدرة على المقاومة والتحدي منذ البداية ، لأنه ذاق الويلات وعرف طعمها ، ورأى صورة الاحتلال بكل ما تعني من فاشية منذ طفولته . ولأنه رأى ونشأ على صورة النضال والمقاومة والتحدي ، ورضع حليب الثورة والثبات ، وتداخل مع نبض الأرض بكلّ أنفاسه وجوارحه .

من هنا صورة وروعة هؤلاء الأطفال الذين أوجدوا فنّ الطفولة المقاتلة والمدافعة عن الحق والأرض والدار . فقد عرف هؤلاء الأطفال الاحتلال وقسوته وظلمه منذ اللحظات الأولى في حياتهم ، ثم درجت خطواتهم على الأرض التي تئن من جراح الأسر والعذاب . وكان لهم أن عاينوا وعايشوا وتداخلوا مع كلّ حرف من حروف المقاومة .

هذا الإنسان يمضي في نهوضه وانتفاضته ، مرتكزاً ومؤكداً على ملامحه الحياتية السابقة والحالية :

((إني من الشعب الذي تعمد بالدماء / كل الجراح التي عانقتني في صمت الظهيرة / تمدّ فيَّ جسراً إلى باب النهار / حفرت شكلها وظلها فوق صدري / العاري / صنعت مني آلاف القذائف والشظايا / لميادين القتال / لأجلك يا دموع الطهر / يا دموعاً تزرع فيّ عزم التصدي / والثبات / لأجلك سوف أصنع المستحيل وأصنع / المعجزات / لأجلك سأصلب على بوابة النهار)) ..

مثل هذه الملامح الحياتية ، والتي تنتقل إلى تشكيل الملامح النفسية ، تضع أمامنا صورة إنسان لا يمكن له أن يتراجع عن متابعة الطريق خطوة واحدة . إنه نتاج الجراح والعذابات التي حولته إلى آلاف القذائف ، نتاج العطاءات التي بذلت فداء وتضحية ، لتملأ صورته بالإقدام والإصرار . لذلك فهو يمضي مؤمناً بالمستقبل كل الإيمان ، وواثقاً بأن شهادته تعني الحرية والخلاص .

إن التوحد مع الماضي والحاضر والمستقبل ، أعطى الانتفاضة كلّ هذا الزخم من البطولة والتضحية والفداء والامتداد . كما أن التوحد مع الأرض عشقاً وعطاءً وشعوراً ، أعطى الانتفاضة كل هذه القدرة على التحدي والمواجهة والوقوف في وجه الاحتلال . فالانتفاضة هي كل هذا المخزون الهائل من الامتدادات اللانهائية في الأرض والطبيعة وجغرافية المكان ، في كل جريان الدم والشهادة والخصب . الانتفاضة كانت كلّ هذا وسواه في نهوضها شموخاً وقوة وتصميماً وإرادة .

ثالثا ـ النهوض من خلال الحب والحقد :

في قصيدته ((لأقمار تطل على شكل حجر)) يتحول الشاعر أسعد الأسعد إلى مغن مسكون بكل معاني العشق والحب والإعجاب . يقول في مطلع قصيدته مخاطباً فلسطين : (يا بلادي لك الآن ما تشائين / من حبي/ ومن حقدي / ومن غضبي / وتكبرين بقلب / صار خارطة / بشكل تلال الغور والسهب ..) والسؤال الذي قد يبرز بعد قراءة هذا الخطاب يقول : هل كان الشاعر على غير هذه الحال قبل الانتفاضة.. ؟؟

الشاعر لم يتغير في حبه وعشقه . ولكنه الآن يندفع ويتدفق ليعبر عن شدة فرحه وهيامه وإعجابه . الانتفاضة حركت هذا المخزون الهائل من العشق ليظهر على صورة مناجاة رائعة تحمل الكثير من الحب والثورة والمشاركة .. ولكن ماذا بعد ؟؟..

الشاعر أسعد الأسعد يقترب من الصورة في واقعها ليقول : هي طلقة/ أو طلقتان/ رتل من الجند / أسلحة وخوذات ومجنزرهْ / هي لحظة / أو لحظتان / زخ رصاص / ربما يتبعه مجزرة / فادّخري دمعك السخيّ / لأطفال مثل

الرياحين / شقائق النعمان من دمهم / لأجساد الأحبة / صارت قناديلاً / ومتراساً / وأشرعة تعمِّد صبرك الممهور دماً)).

إنّها صورة الألم في وجهها الأكثر قرباً .. نسأل : لماذا تلتفّ الكلمات بكلّ هذا النشيج المتواصل .. ؟؟

الشاعر أسعد الأسعد يطرح صورة واقع . طبيعي أن تظهر مساحة الدم والشهادة والغياب . الأطفال المسلحون بالحجارة لا يواجهون سلاحاً مماثلاً ، إنهم يواجهون الرصاص والخوذات والمجنزرات وجنوداً تدربوا على القتل قبل أي شيء آخر .. هنا تبرز قيمة هذه البطولة الفذة لهؤلاء المقاتلين من الأطفال . تبرز الشجاعة الاستثنائية المذهلة .

هذا الكم من الأسى في الكلمات ، يطرح كماً كبيراً من الأسئلة . ودائماً يبرز السؤال الكبير : كيف يستطيع هؤلاء الأطفال مواجهة كلّ هذه الهمجية والحقد ؟؟ كيف يقفون في مواجهة هذه الأسلحة الفتاكة ؟؟ .. وكيف يتقدمون إلى الشهادة بهذا الاندفاع البطولي المحير ؟؟ .. مثل هذه الصورة لا يستطيع العقل أن يستوعبها ، ولكنها صورة واقعية تراها العين وتلمسها المشاعر والأفكار ، فتمتلئ دهشة واستغراباً . ويبقى السؤال في مساحة الإجابة : هل يخلف حب الوطن كلّ هذا التدفق الغريب في رسم ملامح جديدة للبطولة والفداء والعطاء ؟؟

يعيد أسعد الأسعد لحظة الخطاب إلى التوهج من خلال الأسى : ((لا وقت للحزن / تجرعي ملح العذاب / وانتفضي / وأحيلي جنة المحتل ناراً / قادرة أنت / وأعرف أنك قادرهْ)) .. ثم يأتي المقطع الأخير من القصيدة : ((لا بأس / إن سقطتْ على الطريق / قناديل وأقمار / أضأنا من لحمنا / ومن دمنا / من جمرنا / للعابرين ألف ألف قمر / كلّ ما نملك يا بلادي / أقمار تطلّ على شكل حجرْ / قطّعي لحمي / وألقيهِ في وجه مغتصبي / إذا استعصى عليك الحجر / واغفري لي / إن لم يكن كل ما أحمل حباً / فلديّ من الحقد أكثر / إلى أن تشرق شمسك / ويصير الحلم / في العينين أكبر ..)) ..

ألا يبدو الشاعر وكأنه مسكون بالحقد والغضب على الاحتلال ، دون أن يترك فسحة لأي مشاعر أخرى تتعلق بحبه وعشقه لبلاده ؟؟. ألا يعطينا صورة واضحة عن شدّة نقمته على هذا الغاصب الذي سرق وأخذ كلّ شيء ، ثم راح يقتل ويدمّر ويحرق وكأنه لا يريد غير نهاية وموت صاحب الحق ؟؟ ..

هذا المقطع الأخير من القصيدة يعيدنا بشكل مباشر للتواصل مع المقطعين السابقين رغم الانفصال الظاهري . فالحب الذي تأجج في الخطاب الافتتاحي للبلاد ((يا بلادي لك الآن ما تشائين)) وبما فيه من فرح ، كان يشير أيضاً إلى مساحة الغضب والحقد . ثم تأتي صورة المواجهة بين الأطفال والجلاد ، لتزيد في تحريك وتأجيج مشاعر الغضب والحقد . إذ أن الصورة رائعة في رسم ملامح هؤلاء الأطفال الذين يتحدّون الموت ويخلقون نموذجاً استثنائياً للفداء والبطولة . ولكنها في الوقت ذاته صورة مليئة بالأسى والألم ، حيث سقط هؤلاء الأطفال شهداء وهم يتلقون رصاص الباغي بصدور مفتوحة .

الشاعر يثير سؤالاً : أي منطق في مثل هذه الصورة .. ؟؟ مساحة الحرب تستدعي أن يواجه الرصاص بالرصاص ، السلاح الفتاك بسلاح يماثله ، المجنزرة وما إلى ذلك بما يكون مشابهاً . ثم أن يقف الجندي المدرب في مواجهة الجندي المدرب . ولكن ماذا نرى هنا . الطفل المسلح بحجر ، يواجه جندياً مدرباً مسلحاً بكلّ آلات القتل والفتك والتدمير . إنها

صورة تثير كلّ مشاعر الحقد والغضب والنقمة على هذا العدوّ الذي يستمرئ قتل هؤلاء الأطفال . كما أنها تثير كلّ مشاعر الإعجاب والفخر بهؤلاء الأطفال الاستثنائيين الذين يعرفون أنّ الموت يترصد بهم في كلّ شبر وزاوية ومنحنى ، ورغم ذلك يتقدمون وقلوبهم لا تعرف الخوف والفزع . يكتبون بدمائهم وثباتهم وصبرهم أروع صفحات العشق والحب تجاه وطنهم .

ولا نستغرب أن يكون الشاعر غاضباً وناقماً على الاحتلال ، ومحتفياً ومندفعاً بكلّ الحب نحو هؤلاء الأطفال . ومثل هذه المشاعر في حدّيها تدفعه إلى تقديم قطع من لحمه لتكون سلاحاً إن عزّ الحجر . وعندما يواجه الوطن بما عنده من حقد وغضب فإنّه يعد بأن يكون هذا الحقد بركاناً ما دام الاحتلال موجوداً ، وإنه سيزول حتماً عندما تتخلص الأرض من مغتصبها . وعندها ستنبض كلّ المشاعر والإحساسات بالحب والعشق لا غير .. ويجب أن ننتبه إلى يقين الشاعر بأنّ هذا الزمن قادم دون أي تأخير ((إلى أن تشرق شمسك)) ..

رابعاً ـ النهوض من خلال التفاؤل :

وكما كانت الانتفاضة ، مؤكدة على كل المحاور السابقة في نهوضها ، فقد كان طبيعياً أن تؤكد على محور التفاؤل كركيزة أساسية وهامة لا يمكن التخلي عنها في مثل هذه المسيرة النضالية المصممة على الوصول إلى الحرية . وطبيعي أنّ التفاؤل يبدو ظاهراً وجلياً في المحاور السابقة التي ما كان لها أن تسقط الأمل بالمستقبل بأي حال . وهنا يمكن أن نقف عند قصيدة ((أكمل غناءك بالحجارة)) للشاعر يوسف حامد ، حيث تبدو كلّ صور الأمل والتفاؤل من خلال التوقف عند المقاتل الفلسطيني ، حيث : ((أيها البادئ في الأرض / أملاً ستنتهي / في زمانك / جرحك النازف / أملاً تجيء إلى الشوارع / معلناً غضبك)) لتكون المساحة أكثر إشراقاً مع كلّ خطوة جديدة يضعها هذا المقاتل على الطريق . إنه الوعد والشمس والوصول إلى الحرية : ((الآن حرك باتجاه الشمس / رأسك / وانتفض / واحمل حجارتك المباركة التي / تأخذك من ليل / إلى فجر / إلى الدنيا / الآن حرك قبضتك / وانقش على هذا الزمان / دماءك الحمراء / واصمد / تواصل في نضالك / أكمل غناءك بالحجارة)) ..

فخطوة العطاء أغنية خصبة تكتمل بالحجارة المندلعة ناراً في وجه الاحتلال . وهذه الحجارة المباركة هي الجسر والممر والطريق إلى الفجر والحرية . ولا بأس أن يدفع المقاتل المنتفض الثائر روحه ودماءه من أجل الوصول إلى وردة الصباح المشرقة . وفي عشق الشهادة بمعناها المؤدي إلى كل هذا الدفق من الأمل ، تكون أمنية الشاعر في التداخل مع الشهيد : ((ليتني فيك / حين على الثرى هويت / عالياً بالثرى صرت / عالياً بالثرى أنت ..)) ..

* * * * *

الفصل الثاني:

الانتفاضة وصورة البطل المقاوم

في صياغة ملحمة البطولة والفداء والتحدي ، وفي تسطير أروع صفحات الإقدام والشجاعة والبسالة ، سجلت الانتفاضة حضور بطلها الشعبي المقاتل ليكون سيد الصورة ومحرك خطوطها ، في رسم ملامح الإنسان القادر على تجاوز كل ما عرف في الحروب والمعارك التي شهدتها البشرية خلال تاريخها الطويل .

في بروز صورة البطل هذه ، وفي صياغة الملحمة الكبيرة ، تقدّم الإنسان العربي الفلسطيني ، ليضع خطوات واثقة واسعة على طريق النضال والكفاح والمواجهة . ومن خلال بروز ملامح وأبعاد التحدي الصعب ، كان على هذا الإنسان تغيير مجرى كل القوانين والمعادلات في اندفاعه إلى مواجهة أعتى الأسلحة وأشدّها فتكاً وتطوراً وتدميراً ، معتمداً على ما تضمّ طبيعة فلسطين من حجارة ، وعلى السكين والزجاجة الحارقة ، ومع كلّ ذلك ، على إيمانه القوي بحقه ، وعلى شجاعته وصلابته ، إلى جانب اعتماده على صدره العاري ويده .

قد تبدو الصورة غير منطقية ، وغير مقبولة للعقل في كل ملامحها وخطوطها وألوانها . إذ كيف لهذا الإنسان المسلح بحجر، أن يمشي خطوة واحدة على مثل هذا الطريق المستحيل في المواجهة . وهل من المعقول أن يحارب جيشاً ، مدرباً منظماً ، مسلحاً بأحدث الأسلحة ، مطبوعاً على العنف والهمجية ، مسكوناً بكل الشهوة إلى القتل والتخريب والتدمير ؟؟!!

وكان على الصورة أن تكون واقعاً ملموساً منظوراً . فقد برز الفلسطيني مارداً متحدياً لا يعرف شيئاً من مفردات الخوف والخشية والتراجع . نسف كل حدود التوقع ، ومضى على الطريق كأنه قدّ من صخر البلاد لا يلين ولا ينكسر . وأثبت للعالم كله أنه قادر على صنع المعجزة بما يملك من إيمان وإرادة وقوة وصلابة .

وأخذت الصور تتلاحق في تقديم أروع القصص والملاحم عن بطولة كل فرد من أفراد هذا الشعب الذي صمم على نيل الحرية ، مهما كان الثمن غالياً . أخذت الصور تتلاحق في إبراز ملامح الإنسان الذي حول الحجر إلى قذيفة ، وتقدم على الطريق ليواجه أعتى الأسلحة وأشدّها فتكاً ، بصدر مفتوح ، ورأس مرفوع . أخذت الصور تتلاحق في رسم ملامح هذا الإنسان القادر ، ليس على المواجهة وحسب ، ولكن على الاستمرارية والصمود والثبات ، والتصميم على نيل النصر .

وفي مثل هذه الصورة الشعبية الرائعة ، ظهرت وتوضحت ملامح الطفل الفلسطيني المعجزة ، حين انبثقت بشكل مثير ومدهش لتكون صورة الصور بدون منازع . فقد خرج هذا الطفل مارداً يثير الإعجاب والدهشة والذهول ، وأخذ يضرب جنود الاحتلال ضربات موجعة محيرة . وكان له أن دخل دنيا الشهادة والجراح ، قبل أن يعرف الدنيا وخطوطها العريضة .

ووقف الشعر الفلسطيني المقاوم ليرسم ملامح هذا البطل في صورته الشعبية الممتدة على خارطة الزمان والمكان ، وقف ليتداخل مع هذا الإنسان الرائع في صموده وتحديه وثباته ، ومن خلال ذلك أكد على المحاور والصور التالية :

أولاً ـ صورة الشعب وصياغة التحدي :

في قصيدته (على أبواب غزة) يقول الشاعر فتحي القاسم مؤكداً على بروز الصورة الشعبية الجامعة في الانتفاضة :

على أبواب غزة دام خطـــبُ وصار الدرب أحجاراً تهـبُّ
يموت الطفل والشارات تعلـو لرسم النصر أفواجاً تصــبّ
غلت شطآننا واهتاج بحـــر وصار الرمل متراساً يشــبّ
وفي الوديان زمجرة تنــادي ألا هبوا شباب الدار هبــوا
فلسطين استعدي لاح فجـري فما كلّت لنا همم وعصـــب
سلام من صبا شعب الأضاحـي بيوم الهبة الكبرى يعـــب.

لننظر إلى هذا الامتداد الشعبي العارم ، إضافة إلى مشاركة كل الطبيعة الفلسطينية بهذا الامتداد . هنا ينتقل الفعل من حالة التوقف عند صورة معينة ، ليكون فعلاً متحركاً شديد الغليان . فتحرك الإنسان العربي الفلسطيني في مواجهة الاحتلال ، لا يأتي بمعزل عن تحرك الطبيعة بكل موجوداتها ، بل يتداخل معها ويتوحد ، ليكون فعلاً ثورياً ثابتاً راسخاً شديد الصلة بالإنسان وأرضه .

وفي قصيدة أخرى للشاعر فتحي القاسم حملت عنوان ((الفعل المضاد أو ردّ الفعل)) نقف على بروز ((الأنا)) الشعبية في حالة المواجهة والتحدي . هنا ينتقل الشاعر المعبر عن هذه ((الأنا)) ليكون المقاتل ، أو صورته الممتدة . ويأخذ في مخاطبة الاحتلال بكلمات التحدي والمجابهة : ((أيامي في صدك مشهودة / أيامك يا هذا معدودة / لا ترقص فوق الأشلاء المعبودة / فالساعة لن تتوقف / لن تحرق فوق المدن الموصوده)) ..

ويمكن أن نقرأ صوراً أخرى لهذا التحدي الرائع في ديوان ((صدى الانتفاضة)) للشاعر نايف سليم ، حيث تأخذ بعض القصائد ـ التي اطلعنا عليها ـ شكل التوقيعات النابضة بالسرعة والحركة والتعبير الموجز . من هذه القصائد قصيدة ((وظل يخفق العلم)) وفيها : ((الريح حين استيقظتْ / رأت أمامها العلم / فابتهجت ، وبعد رقصة الصباح / رتّلت : أنشودة العلم / فانفعل الجنديّ ، هستر الجنديّ / واعتلى على العامود ، ينزل العلم / فانصعق الجنديّ / والأفق الغربيّ / والعمود حوله ابتسم / وظلّ يخفق العلمْ)) ..

فهنا لا تأخذ الحكاية ملامح القصّ بكلّ أبعاده ، ولكن تبقى للشخصيات قدرتها على الظهور بشكل واضح لتؤدي دورها في عملية الصراع . وطبيعي أن يكون انتصار العلم الفلسطيني على الجندي الإسرائيلي آنياً في لحظة بروز ملامح الصورة ، ومستقبلياً في امتداد واستمرارية شموخ العلم وارتفاعه .. وصورة لاحقة في قصيدة ((حرارة)) تؤكد كلّ امتدادات النصر الآنية والمستقبلية ، حيث : ((كان الشتاء لافحاً وقارس / حمّوا الشتاء ، أغلقوا المدارس / ولاحقوا الأطفالْ / حتى أصبح الأطفال ، / رجالْ ..)) ..

فالقصيدة الموجزة على هذا الشكل ، والآتية على هذا الحال من الاختصار ، لا تقول كلّ الكلمات والصور . إنّها تترك مساحة واسعة لحديث يأتي ، ولفعل يأتي أيضاً . وطبيعي أنّ الأطفال الذين أصبحوا رجالاً , قادرون على رسم أطر الفجر كما يريدون ، وقادرون على التحدي والمواجهة والصمود .

الاحتلال لا يريد لهؤلاء الأطفال أن يجتمعوا في المدرسة ، لأن اجتماعهم خطير .. ولكنّ الفصل فصل شتاء ، وهو فصل الدراسة .. فما كان من هذا الاحتلال إلاّ أن جعل الشتاء صيفاً ، وأغلق المدارس . طبيعي أن تكون السخرية حادة على هذا الشكل الذي يبدو كاريكاتيرياً في رسم صورة الاحتلال وهو يحمي الشتاء ليجعله صيفاً . إنه يريد قلب الفصول وتغييرها وتزويرها ، لتوافق وتطابق ما يريد من رغبات . كأنّ الشاعر يعيدنا إلى صورة الاحتلال الدائمة في قلب وتشويه الحقائق ، في تزوير كلّ شيء ليكون على الحال الذي يريد . ولكن تبقى الحقيقة أنصع وأشدّ ظهوراً من أن تزوَّر وتضيع ملامحها . وسؤال : هل استطاع الاحتلال الوصول إلى مبتغاه بعد أن أغلق المدارس ولاحق الأطفال ؟؟ طبيعي أن يكون الجواب ((لا)) كبيرة ، فكما أن تحمية الشتاء لا تجعل منه صيفاً ، كذلك إغلاق المدارس لا يعني حجز هؤلاء الأطفال وإيقافهم عن الحركة والتمرد والتحدي . وفي النتيجة يكبر هؤلاء الأطفال نضالاً وثورة وقدرة على المواجهة .. هنا يمكن أن نلتقي مع الطفل المعجزة .. كيف ؟؟ ..

ثانياً ـ صورة الطفل المعجزة :

في الجواب على السؤال السابق ، نقرأ حكاية هذا الطفل المعجزة ، الطفل / الرجل الذي يستطيع أن يبدع أكثر في استمرارية لا تتوقف ، حيث في قصيدة ((أبدعت أكثر)) للشاعر هايل عساقله ، يكون الخطاب : ((أبدعت أكثرْ / لما رفعت الشمس أكثرْ / والقمح أكثرْ / والسروَ أكثرْ / ونسجت من فمك المدورْ / قمراً على باب الخليل)) فالكف الصغيرة تصنع المعجزة وتخلق كلّ أبعادها . والولد أو الطفل هنا، يعطي قيمة لكلّ الأشياء ، ويبعث فيها الرفعة والشموخ . في الظاهر قد تبدو هذه الأشياء على حالها ، ولكن في التداخل مع خطوة الطفل المعجزة ، تأخذ شكلها الأعمق والأعلى .

الطفل يتابع ويواصل امتشاق سيفه الصباحي ، لتكون أمواج الصورة المتلاحقة بشكل أخّاذ واستثنائي ، نابعة من استثنائية هذه البطولة : ((يا أيها الولد الذي / قطع المسافات الطويلة / ما تعثرْ / وبكفه / أعلى جبين الأفق أكثرْ / يا أيها الولد المطوق / بالحواجز/ والمدافع ../ يا أيها الولد المحاصر / في الأزقة والمقاهي / والشوارع / أبدعت أكثرْ لما تقحمت الردى / والخطب / والجيش المقهقر / وقذفتهم / وعبرتهم / وقطعت كل مسارب الدنيا / ويومك ما تأخرْ / وقطعت كل حواجز الدنيا / وأمسك ما تأخرْ / وقطعت كلّ حواجز الدنيا / وخطوك ما تأخرْ ..)) ..

هل يحاول هايل عساقله نقل هذا الطفل إلى حيز الأسطورة ؟؟ .. هل يريد وضعه في مكان خيالي لا يمت إلى الواقع بصلة ؟؟..

قراءة الإجابة تأتي من قراءة واقع الحال في بطولة أطفال فلسطين . فالبطولة استثنائية أسطورية بكلّ ملامحها وامتداداتها ووقائعها . وأول ملمح من ملامح هذه الأسطورة يتبدى في تجاوز كلّ متوقع من الطفل ، وفي كون هذا الطفل خارقاً في الفعل والصورة والامتداد . إذ أنّ تأليف حكاية عما يحدث من مواجهة بين هؤلاء الأطفال المسلحين

بالحجارة من جهة ، وبين جنود الاحتلال المسلحين بكلّ الأسلحة المتطورة الفتاكة من جهة أخرى ، سيعدّ تأليفاً خيالياً غير واقعي ، لو لم تكن كل الوقائع والأحداث والصور موجودة ومتنامية أمام العين . من هنا إصرار الشاعر على أسطرة هذا الإبداع الطفولي المدهش .. ونقرأ :

((أبدعت في درس الحساب / لكن بدرس الثورة الحمراء / قد أبدعت أكثر / أبدعت في درس القراءة / والرياضة / لكن على درب الرجال / وفي طريق الانتفاضة .. / أبدعت أكثرْ)) ..

وماذا عن هذا الطفل أيضاً ؟؟ .. في قصيدته ((نعبر الأيام شوقاً)) يركز د. سليم مخولي على صورة :

((هو ذا الطفل تجلّى كمسيح / في سحاب الرمل ، والرمل انتشار / لخلايا الروح في الصدر الفسيح / يرقد الطفل جريحاً / أو ذبيحاً وينام / في ظلال المهد أو عطر الخزام / أمنا الأرض احضنيه / عانقيه بسمة الصبح المليح / واتركيه .. / حالماً من أجلنا الحلم الحرام / حيث أغفى كشعاع / في خيام العصر أو ورد السفوح)) ..

ليكون الطفل المخلّص والفادي . وانتشار الصورة هنا يأخذ بعداً جديداً . يلحظ في كلّ التكوينات المشكلة للملامح النفسية والشعورية والجسدية لهذا الطفل . قد يلتقي في الكثير من الملامح الاستثنائية مع الطفل المرسوم أو المتواجد في القصيدة السابقة للشاعر هايل عساقلة . ولكنه هنا يجترح معجزته الجديدة في التداخل مع صورة المسيح بما تعني من سعي إلى خلاص الآخرين . إنه يقدّم دمه وجسده وشرايينه لتكون حرية الوطن .

تبدأ ملامح الانتقال في الكثير من الصور التي تأخذ وجهي الغياب والظهور ، وجهي الاختفاء والتجلّي . فالطفل جريح أو ذبيح ، وهو انتشار في سحاب الرمل .. وهو أيضاً شعاع يغفو في خيام العصر أو ورد السفوح .. وعلى الأغلب، فقد كانت ملامحه أقرب إلى التوزع في كل موجودات الطبيعة . وحين تحضنه الأرض ابتسامة أمل ، وتطلعاً تفاؤلياً إلى المستقبل ، يبقى حلماً كبيراً ورائعاً في الطريق إلى الحرية . وهذا الحلم الذي يحرِّمه الاحتلال ويحاربه ، استطاع هذا الطفل أن يبنيه على طريقته ليكون حلم الواقع الذي تسعى الخطوات إليه فاردة كل مساحات الدم والشهادة والعطاء والبطولة .

وفي صورة أخرى للطفل الفلسطيني ، يضعنا الشاعر ياسين حسن في قصيدته ((إلى أطفال غزة)) أمام سؤال يقول : كيف استطاع هؤلاء الأطفال فعل ما يفعلون ؟؟. كيف خرجوا على المألوف والمتوقع ، وكتبوا ملحمة جديدة من ملاحم البطولة والتحدي والفداء ؟؟ : ((أكبر من أعماركم تاريخ الاحتلال / أطول من قاماتكم هراوة الإذلال / أضخم من قبضاتكم سلاسل القيود والأغلال / أشدّ من حجارتكم فتكاً مدافع القتل والاغتيال / فكيف .. كيف أيها الأبالسة / مرغتم المحتلّ في مستنقع الأوحال / بأي سحر جئتم / حتى على منخاره ، الشامخ دستم بالنعال)) ..

كان من المتوقع ، وهذا ما خطط له الاحتلال ، أن يكون هؤلاء الأطفال خانعين أذلاء ، خائفين ضعفاء ، لا يستطيعون تحريك ساكن . كان يظن أنهم الطرف الذي لا يمكن أن يحسب له حساب مهما كانت الاحتمالات والتوقعات . كان بطش وعنف وقسوة الاحتلال أقوى منهم بكثير ، فكيف لهم أن يفكروا يوماً بتحدي هذا الوحش الذي يعمل على الهيمنة على كلّ شيء في الوطن المحتل .. ومهما كان الأمر ، فإنهم مجرد أطفال .. ولكن فجأة خرج هؤلاء كما يخرج المارد

من القمقم . خرجوا ليكونوا قوة استثنائية هائلة تستطيع أن تقاتل وتثبت وتتحدى ، وتضع الاحتلال في مواجهة صعبة لم يكن يتخيل في يوم من الأيام أنها ممكنة الحدوث ..
هؤلاء الأطفال ضربوا ونسفوا كلّ توقع . جعلوا غير الممكن ممكناً من خلال خطوات جبارة عنيدة استطاعت أن تجعل المستحيل شيئاً مألوفاً . أربكوا الاحتلال وصفعوه وداسوا بأقدامهم الصغيرة على كلّ جبروته . حيروا العالم وجعلوه يلتفت إلى ثورتهم بعين الإعجاب والتقدير والذهول .
من هذه الزاوية كان الشاعر ياسين حسن حائراً في رسم إطار ٍ لفرحته وإعجابه ودهشته . إنه يعرف عن قرب ومعايشة ، مقدار ما عند الاحتلال من بطش وقسوة وشهوة للتدمير والقتل والتخريب . وفجأة يرى إلى هؤلاء الأطفال وهم يبرزون ويتقدمون ويطلعون شموساً تحارب العتمة ببسالة منقطعة النظير . فجأة يرى إلى هؤلاء الأطفال الرائعين وهم يرسمون أروع صورة من صور الشموخ والبطولة . وكان عليه أن يقول كلمته فيهم . أن يصف هذا الفجر بكلّ ما فيه من صور وأبعاد وجماليات . فاجتمعت كلّ كلماته في صرخة فرح وإعجاب وتطلع إلى المستقبل الحافل بالعطاء .

ثالثاً ـ صورة المرأة :

في ((أشواق)) الشاعرة حنان عواد تظهر ملامح غزل جديد يندمج مع كلّ صور الانتفاضة ونبضها ومعطياتها . تدخل القصيدة في بناء صورة راسخة لهذا الحب الذي يمتدّ ليشمل الحبيب في تداخله مع الوطن، والوطن في تداخله مع الحبيب :
((أحبك أيها الرجل الفلسطينيّ / تحمل رايةً تعلو على الرايات / أحبك أيها الأمل الفلسطينيّ / نصراً يبعث الغايات / أحبك أيها الزمن الفلسطيني / عمراً رائع اللحظات / أحبك آية من أعظم الآيات)) ..
ولا يأخذ الحب هنا معناه المحدد والضيق ، لا يتوقف عند صورة الحبيب بمعناها المتداول المكرر . فالحبيب هنا هو كلّ مقاتل ضدّ الاحتلال ، كلّ حامل حجر ، وكلّ شهيد يسقط فداء أرضه : ((فلسطيني .. فلسطيني / وليس سواك ملء العين / ملء اللون يعنيني / أحبك أيها الجسد الفدائيّ / الذي يمضي بلا كفن / أحبك راية تعلو / وترفع في ذرى وطني)) ..
ولكن هل كان هذا الحب في امتداده وشموله ، مسقطاً دور المرأة الفلسطينية ، لتكون مجرد امرأة تشجع وتحرض وتدفع الرجل إلى ساحة الحرب ، دون مشاركة منها في القتال والنضال ضدّ الاحتلال ؟؟
الإجابة عند الشاعرة حنان عواد تأتي من صميم الواقع المعاش في زمن الانتفاضة ، حيث تشارك المرأة الفلسطينية مشاركة كلية وفعالة في المواجهة والتحدي والصمود . وهذه المشاركة ليست وليدة زمن الانتفاضة دون سواه من الأزمنة السابقة ، فقد كانت المرأة الفلسطينية في ساحة المعركة والمواجهة إلى جانب الرجل في كلّ مراحل النضال والثورة ، تقاتل وتستشهد وتعاني وتسجن و : ((أنا بنت السلاح / أقاتل الإعصار)) : ((سأبني قارباً في الشمس / سأبحر نحو هذا العرس / سأنهي قصة في الأمس / وأحلم يوم عودتنا)) ..

وعلى هذا الصعيد في تسجيل دور المرأة الفاعل والمؤثر في مواجهة الاحتلال ، تأتي قصيدة الشاعر حسين فاعور ((في عزّ موتك تولدين)) لتدعونا إلى دخولها في عرس الدم والشهادة فداء الوطن . فها هي سحر تسقط شهيدة لترتسم الصورة : ((قمر يسافر يا سحر / قمر يفتش عن قمر)) . ((اليوم وجهك كان ملء المشرقين / وكنت أحلى من قمر / اليوم لم تخفي الحنين / ولم تبال بالردى / اليوم وجهك كان ملء المشرقين / وكنت في حجم المدى / عشر وسبع سنابل لن تحترق ..)) .. وتكون الحياة :

((هم أطلقوا ناراً عليك ليقتلوك / ويقتلوه .. / فشبّ خيط الدم في وتر الحنين / عزفت موسيقى الحياة / فكان موتك مستحيلاً ، كنت أقوى / من بنادقهم / وكنت صبية في عزّ موتك تولدين / وتعلنين بداية)) . .

ومن خلال هذه الشهيدة البطلة يبدو المستقبل مشرقاً في عيني الشاعر : ((إني أرى عرس الحياة على القممْ / وأرى سحرْ / فستانها الزهري يجتاح الحجارة / والإطارات اللهب / إني أرى سرباً من الأحلام / يجتاح الأفق / وأرى الحياة تجيء جذلى في خطاه / إني أرى علماً يرفرف في القلوبِ / هو العلمْ)) ..

ويكتب الشاعر المتوكل طه أثناء اعتقاله في ((أنصار 3)) قصيدة يوجه فيها الخطاب إلى رفيقته المعتقلة في سجن النساء . ومن عنوان القصيدة ((ونحن سواء)) نتعرف على ملامح المشاركة الفعلية للمرأة الفلسطينية في النضال والثورة ، ويبدأ الشاعر : ((لعلك يا أخت روحي بخير / لعل جميع اللواتي عشقن الحياة بخير ..)) فهو لا يلتفت إليها وحدها ، ولكنه يسجل تحيته وحبه وأمنياته لكلّ المناضلات اللواتي عشقن الحياة ودافعن عن الحرية والشمس .. وتكون صورتها ((يا أخت روحي التي ما نسيت / أراك بسجنك أحلى وأبهى)) حيث تبرز روعة الجمال من خلال العطاء الوطني ، ومن خلال التدفق في حب الأرض .. ثم ها هو يحار عن أي شيء يسأل ، وكلاهما سواء في المعاناة والصبر والتحمل : ((يا أخت روحي / أأسأل جوعك كيف يشقق فيك الجبال / وكيف البلابل في شفتيك تنادي البحار / وكيف الزنازين تصحو على الصرخات / ونحن سواء / أأسأل والسجن غاز يفجر قلب الهواء / ونحن سواء)) ..

رابعاً ـ صورة السجين :

وفي هذه القصيدة ((ونحن سواء)) للمتوكل طه ، تبرز صورة الإنسان المقاوم في سجنه ، فرغم القضبان والجلاد والحديد ، يصرّ هذا السجين على التحدي والنضال . وإذا كانت السجون ((لحرق البساتين في الصدور)) ولقتل الشموخ والأمل والابتسامة ، فإنّ السجناء في سجون الوطن المحتل يصيحون بكل تحد وإصرار : ((ولكننا قد جعلنا السجون قلاعاً / تضجّ شموساً / وسرجاً نطرزه للعراء)) و : ((فنحن نواجه رمل المعسكر ((بالأوف)) / نكسر وحش الصحارى / بعرس انتفاضتنا / لا نكف عن الدبكات / ونغمر هذا المدى بالغناء)) ..

لتكون صرخة التفاؤل الثوري أقوى من حديد وقضبان وعتمة السجن . الشاعر يعرف أنه سجن لأنّ صوته الشعري كان أغنية ونشيداً للانتفاضة ، وأنّ الاحتلال خائف من القصيدة القادرة على تحريك الناس وتأجيج الحماس فيهم ، خوفه من قوة الفعل وأكثر . ولأنّ الشاعر يعي كلّ ذلك ، فقد كانت قصيدته تخترق الحصار المفروض عليه في السجن ، لتصل إلى أبناء شعبه المنتفضين في كلّ مكان من الوطن المحتل .

خامساً ـ صورة الحجر :

في الحديث عن الانتفاضة وصورة البطل المقاوم ، لابدّ من التوقف عند صورة الحجر الذي شكل سلاحاً هاماً ورئيسياً في يد الإنسان الفلسطيني المنتفض ثورة عارمة في وجه الاحتلال فماذا نقرأ عن هذا الحجر .. ؟؟

في قصيدته ((أوثان يقبلها جميع الأنبياء)) يأخذ الحجر عند الشاعر فوزي البكري شكل وثن عظيم له القيمة الكبيرة والفاعلية المؤثرة في النفس كحجر حبيب ، وفي المواجهة كحجر فاعل : ((وإذا استفزّك في الرصاص شراسة / دويت فوق رؤوسهم / أعتى وأشرس)) لذلك ((بوركت يا وثني العظيم .. بوركت أيها الحجر المقدس ..)) .. ((وتعلموا فن الحصار / ولم يكونوا منك بالإعصار أعلم ..)) .. ويتوجه الشاعر بعدها إلى فارسه المقاتل بالقول : ((يا هذا الفارس لا تترجل / لك أنت الغد / لك أنت الأبد / ولك المجد / وعلى الأرض الإعصار / ونجوم الليل على كتفيك نياشين / والقمر الثوري / يكحل ليل الأحرار بضوء / يتسرب من عين فلسطين / يا هذا الفارس / إنك إنْ تترجل / أبقيت مجرات الأمل بدون مدار ..)) .. ((وقف العالم مذهولاً / يستلهم من بركانك / كيف تؤجج في ليل الطاغوت النار ..)) وتكون لحظة التداخل بين الحجر والفارس ، ليقف العالم كله تلميذاً أمام انتفاضة انطلقت مليئة بالنبض والشموخ والعنفوان : ((وقف العالم تلميذاً / يتعلم من زلزالك / كيف يصان الإنسان / وكيف يصاغ الثوار / ألغيرك يتوهّج قرص الشمس / ألغيرك يتلون قوس قزح / ويشدو عصفور الرفض / يا عقداً حجرياً في عنق الأرض / ألغيرك يتدوّر إكليل الغار / كتب التاريخ جميعاً / بالحبر على الأوراق / فهل قرؤوا تاريخاً / مكتوباً بدماء في صفحات شرار ..)) ..

ثم يرى فوزي البكري : ((إنّ الحلوى / في أيدي أطفال العالم / قدس الأقداس / ولكنّ الحلوى / في أيدي أطفال فلسطين / حجر الأحجار / اشرب كأس دموعك / والسع بملوحتها وعي الأحلام / فتنهض نشوى / تتسلق خيط الفجر / وتقطف من أرواح الشهداء / بواكير الزنبق / وتعبئ غيم الفرحة بالأمطار)) ..

وإذا كان الشاعر فوزي البكري يرى في الحجر وثناً معبوداً ، فإن الشاعر حسين مهنا يراه متداخلاً مع الطفل المقاتل في قصيدته ((قصيدة بأحرف حجرية)) حيث يقول : ((لمدينة عزلاء أهدي / ذوب أغنيتي / وطنين قافيتي / وتمازج الكلمات باللحن / الغضوب على وتر / ولطفلها الحجري أهدي / وردة حمراء / قلبي اليافوي .. وضحكتي / وفراشتين .. وقبلتين على حجرْ)) ..

* * * * *

الفصل الثالث:

الانتفاضة وأقانيم الانتصار

طبيعي أن تشكل كل حركة فاعلة في زمن الانتفاضة ، واحداً من أقانيم الانتصار والحرية . وطبيعي أيضاً ، أن تصبّ جميع الخطوات في الطريق المؤدي إلى تحرير الأرض من الاحتلال . ولا يمكن بأي حال ، استثناء أو إسقاط أي لون أو خط من ألوان الصورة وخطوطها ، في الحديث عن فاعلية هذا المحور أو ذاك في دعم ورفد الانتفاضة وصولاً بها إلى شاطئ الخلاص .

منذ البداية ، وظفت الانتفاضة كلّ شيء ، وأدخلته في نسق المقاومة ، ليكون في تداخل مطلق مع كفاح الإنسان العربي الفلسطيني ، على طريق المواجهة والصمود والثبات والتحدي .. مما جعل صورة المقاومة جامعة وشاملة ومتكاملة ، وكأنّ فلسطين كلها ، بطبيعتها وموجوداتها وبيوتها وأهلها ، قد خرجت إلى ساحة المعركة ، لتدكّ البغي ، ولتنهي ظلمة الليل الطويل .

وإذا كنا قد تحدثنا من قبل عن الانتفاضة وأقانيم النهوض ، وعن الانتفاضة وصورة البطل المقاوم ، وفيما يؤدي بطبيعته وخطواته إلى الدخول في رفد الحديث عن أقانيم الانتصار ، والذي لا يمكن له أن يكون بمعزل عن النهوض وبطله ، فإنّ الحديث عن محاور أخرى ، إنما يأتي ليصبّ في إعطاء الصورة بقية ملامحها وألوانها . فما هي هذه المحاور :

أولاً ـ الدم والشهادة على طريق الحرية :

في قصيدته التي أخذت عنوان ((قصيدة بأحرف حجرية)) يرى الشاعر حسين مهنا أنه لا بدّ من تقديم الدم بسخاء لتزهر أغنية العرس والعيد فيما بعد ، لذلك يخاطب الطفل بالقول : ((يا أيها الطفل الفلسطيني صوِّبْ حجرك)) وبعدها : ((فافتح صنابير الدماء / قرنفل الشرفات أضجره انتظار العيد / والجوريّ يقتله الضجر / لك ما تشاء / فشدّ هذا الكون من قرنيه / أطلع فجرك الوردي / من دمك الزكيّ .. وبالحجر)) ..

فمساحة الدم تأتي هنا لتتلاحم مع مساحة الضوء والفجر والنور . وإذا كانت القصيدة قد غنت واحتفت بالمقاتل وبالحجر والصمود والثبات العملاق في وجه الاحتلال ، فإنها لم تترك مساحة الدم بعيدة عن حروفها وغنائها واحتفائها . وها هو الشاعر محمد آل رضوان في قصيدته ((الانتفاضة)) يكرس كلّ كلماته ونشيده لهذا الدم الذي يحمل الفجر الأكيد في كلّ قطرة من قطراته : ((المجد المجد / لهذا الدم / يتفجر من شريانك فم / يصرخ والصرخة مفزعة / في وجه المحتل المجرمْ / هذا دمنا / يتفجر قنبلة حارقة / تعلن أنّا لن نستسلمْ / هذا دمنا / يروي عنا / ما لا يدرك أو لا يفهمْ)

وفي الالتقاء مع هذه الصورة ، وامتدادها إلى صورة الشهادة ومعانيها النابضة ، يكتب الشاعر عبد الناصر صالح (هل غادر الشهداء)) حيث : ((يتسابق الشهداء في سجن النقب / ليشكلوا بدمائهم جدلية الموت الحياة / ويعمدوا أجسادهم بالرمل / يلتحقون بالركب الطويل إلى احتفال الروح / ينزرعون أشجاراً على درب الشهادة)) ..

إنّها قصة هذا العشق الغريب الرائع في الاندفاع إلى التوحد والتداخل مع كلّ أقانيم الأرض وفصولها النابضة دعاء وفتنة ونداء . الجسد لا تكتمل روعته إلا حين يتعمد بهذا الرمل المنفتح أغنيات على خيوط الشمس : ((يتسابق الشهداء / يلتحمون بالرمل القديم يسافرون لعرسهم / يتعانقون بمهرجان المسك والحناء / كم حلموا بعيد الأرض / واحتفلوا بأسماء الجبال / وشيدوا للريح عاصمة / أعدّوا للنشيد الحر / أسراب العصافير التي اجتازت سياج الموت / واجتمعت على أرض النقبْ)) ..

فهو التسابق إلى الالتحام بأغنية الحرية القادمة . إنهم يكتبون بأرواحهم ودمائهم وأجسادهم سطور الضوء والشمس من أجل خلاص شعبهم ، وهم يلتقون بذلك مع قافلة الشهداء الطويلة ، قافلة الداخلين في العرس الفلسطيني الاستثنائي : ((للعرس الفلسطيني طعم المسك / جمهرة النساء وهنَّ يطلقنَ الزغاريد / احتفال الفتية الأطفال في الميدان / رقص الخيول مشدوداً إلى لحن البيادر / هل تعانقت الوجوه السمر / هل رنت العيون إلى اكتشاف الذات / هل وصلت طلائع عرسنا الناريّ / للشهداء لون الزعتر البريِّ والحناء / أقمار تحلق في السماء / وراية للمجد / تخفق في فضاء القلب / تعطي الانتفاضة بعدها الشعبي / تحفر فوق سطح الرمل تاريخ الغضب)) ..

وعلى هذا الشكل من إعطاء صورة شهيد الانتفاضة كلّ هذا الامتداد في الزمان والمكان ، نقرأ قصيدة الشاعر شكيب جهشان ((يا أجمل الشهداء)) حيث يوجه الخطاب إلى والد الشهيد ، أكرم الآباء : ((أغمض له جفنيه / واطبع / فوق هامته الأبية / قبلتينْ / يا أكرم الآباء / وازرع / في الثرى المخضوب من دمه / لمجد عطائه القدسيّ / ازرع بيرقين ..)) ولا يأتي إغماض الجفنين في هذا النسق المتلاحق مجرداً من بعده الوطني ، فاتصال الخطاب يرجع اللاحق إلى السابق ، لإعطاء الصورة زخماً جمالياً وتعبيرياً ، حيث : ((أغمض له جفنيه / كانت صورة الوطن الحبيب / وديعة في بؤبؤيه / أغمض له جفنيه / كانت شارة النصر المؤزّر / تملأ الدنيا عليهْ ..)) ..

إنه الانفتاح الطبيعي على صورة الوطن ، حيث الإنسان الفلسطيني في حالة عشق دائمة ومتوارثة معه ، وعلى شارة النصر ، حيث هي الغاية التي تبقى في العين والقلب والروح والشريان . فالشهيد لم يكن قبل استشهاده ، غير هذا العاشق والثائر ، وما كان في استشهاده إلا هذا العاشق والداعي لمواصلة الطريق .

ولكن هل توقفت صورة الشهيد عند هذا الحد .. ؟؟

طبيعي أن يبقى الشهيد محور كلّ الصور ، لما له من أثر وفاعلية على طريق المواجهة والصمود والثبات . كلّ الصور يمكن أن تصبّ في هذه الصورة التي تمثل قمة العطاء والخصب والبطولة . فماذا نقرأ حول ذلك ؟؟

في قصيدة ((كي يبقى شجر الزيتون)) للشاعر حنا عواد ، تتلاحق صورة الشهيد لتكون في كلّ معاني النماء والتجدد والحياة . الشهيد يفنى ليطلق الخضرة والربيع والغناء والحرية . الشهيد يفنى ليعطي الحياة بكل معانيها الجميلة للآخرين . الشهيد يفنى ليصون حياة الآخرين من الفناء على أيدي الجلادين . والشهيد يفنى : ((كي يبقى شجر الزيتون ، ونبقى / كي يمتدّ ونمتدّ جذوراً في الأرض / وننمو مع هذا الزيتون فروعاً تكبر .. تورق / تزهر .. تثمر .. تعلو كي تصل الذروة)) ..

والشهيد يفنى : ((كي لا نفنى ، أو لا يفنى وطن / نحيا فيه ، ويحيا فينا / نثبت فيه ، ليثبت فينا / نبقى فيه ، ليبقى فينا / لهفة حب ، لوعة صب)) ..
ويفنى ((كي لا يرحل شعبي أكثر)) إنه الفناء الذي يورق ويخصب حياة . وطبيعي أن يأخذ قبر الشهيد معناه الاستثنائي المتولد من هذا العطاء الكبير : ((قبرك باب للخلد ودرب خلاص وسلامه / موتك عرس للمجد ، ونور للتاريخ .. وللشعب قيامه)) ..

ثانياً ـ التداخل مع الطبيعة والمكان :

في قصيدته ((قرار رقم 1 من خندق الثوار)) يقف الشاعر عارف جبر في عناق وتوحد مع مدينته جنين ، لتكون شعلة ملتهبة في وجه الاحتلال . فهذه المدينة ((مضافة الثوار)) وهي ((كاتمة الأسرار)) و ((مدينة الطوفان والبركان)) و ((العروس والوضوح والإصرار / سفينة الرجوع / للمرفأ الأخير)) وهي : ((مشاعل المشوار / مغارة العتاد)) و ((سرّ نار الله)) و((مخزن الأرواح / وجعبة الصباح)) .. ويخاطبها قائلاً :
((يا قبضة في يدها الزجاج والحجارة / يا امرأة هتافها بكل حاره / يا ثورة اليقين ، يا انتفاضة الحضارة / باسم الجماهير التي في وجهها البشاره / في كفها الشراره / تمرّدي .. تمرّدي .. تمرّدي .. / وأشعلي الأفق ..)) ..
بينما تأتي صورة مدينة غزة عند الشاعر خالد عوض / من الناصرة / في قصيدته ((اترك قمرنا يا حوت)) لتكون في جمالها ونضالها رائعة الملامح والخصب والأبعاد : ((في البدء كانت غزة / وغزة جميلة / وأجمل ما فيها عيناها الزرقاوان / وشعرها الأشقر / وفستانها البرتقالي الأخضر ..)) فهي تتداخل مع صورة صبية جميلة ، دون الابتعاد عن صفاتها الطبيعية بكلّ ما فيها من روعة ((تنادينا .. تناجينا)) : ((رأيتها تخبئ الوطن في الأزهار / رأيتها تنقل الأحجار للأبطال / وتحتضن الرمل وبيارات البرتقال)) ..
غزة إذن تأخذ كلّ ملامح الأنسنة ، وتنهض لتكون في قلب المقاومة : ((أسطورة .. حكاية .. / صراع بين رصاص وحجر / بين بقاء وسفر)) ..
ومن خلال مدينة القدس يرى الشاعر رفول بولس في قصيدته ((الليل أضحى نهاراً)) إلى الانتفاضة وهي تمتدّ لهيباً لا يهدأ في وجه الاحتلال ، حيث : ((الأرض تدور / وشعب القدس يثور / وفي يده حجر ..)) و ((الصخرة تنده / صبراً يا ثوار / قريباً نبني الدار / من غاب يعود / وثغاء الغنم يعود / ويعلو صوت المزمار)) و ((الأرض تدور / وشعب القدس يثور / في وجه الغاصب / يقف المارد / غضباً يهتزّ / يعصره الحزن / لكن المارد / جبار يتحدّى الإعصار ..)) ومن خلال مدينة القدس يستمر ضوء الصباح في الاقتراب شيئاً فشيئاً ، ويكون الغد بكلّ ما فيه من جماليات مفتوحاً على الحرية والأمل : ((الأرض تدور / وشعب القدس يثور / الفجر يهلّ / والصبح يطلّ / ويقوم أهالي الدار / الجار ينادي الجار / اعشوشبت الأرض / وأزهرت الأشجارْ)) ..
الخطوة تتبع الخطوة ، والطريق يبقى مفتوحاً على الوعد والمطر والشمس . إن التداخل المطلق مع المكان بطبيعته وتاريخه وجغرافيته . وأنسنة المدينة أو القرية أو المخيم وما إلى ذلك ، لا يخرج عن كونه إصراراً وتأكيداً من الشاعر

الفلسطيني على فهمه للغة ومشاعر وأنفاس طبيعته التي عرفها وعرفته ، عاشها وعاشته ، خبرها وخبرته ، عبر الأزمان والحقب التاريخية والعصور . فهو على يقين وإيمان بأنّ الطبيعة الفلسطينية تحارب وتقاتل معه بكل ما فيها وما عليها . كان ذلك مع أول خطوة في خطوات الشعر الفلسطيني المقاوم ، وامتد ليصل إلى صورته الحالية في قصيدة الانتفاضة . ولكن هل استجابت الطبيعة لتكون واقعاً في دفاعها وحربها ومواجهتها للاحتلال ، من خلال تداخلها مع قبضة الإنسان العربي الفلسطيني في مقاومته ؟؟ ..

في زمن الانتفاضة ، انتقل اليقين والإيمان ، إلى حقيقة واقعية سجلتها الأيام والدقائق والثواني . فالطبيعة الفلسطينية أخذت تهب هذا الإنسان سلاحه المكون من الحجارة ، ليكون سلاحاً فاعلاً لا ينضب ولا ينتهي . كان هذا الانتقال تحقيقاً مباشراً لصورة الشاعر في كلّ تواصله مع المكان قديماً وحديثاً ، انتقل المكان إلى دورا لفاعلية والمشاركة والحركة . كان من قبل صورة وجدانية يعيشها الشاعر ويختزنها في أفكاره وأحاسيسه ومشاعره ، كان أقرب إلى الإحساس الدافئ العميق بأنّ الطبيعة تتحرك وتنفعل وتنبض معه ، ولم يكن هذا الإحساس قليل الأثر والتأثير في إعطاء الإنسان قوة ودفعاً لمتابعة الطريق . وحين انتقلت الصورة إلى معناها الواقعي في المشاركة والامتداد والحركة النابضة ، أعطت الفلسطيني قوة هائلة ليكون ذا خطوة جبارة في التحدي والمواجهة والقتال .

يمكن هنا أن نقرأ ما كتبه الشاعر يوسف المحمود في قصيدته ((صورة 1)) حيث نرى لوحة مدهشة من لوحات التوحد مع الطبيعة بشكل مطلق . المقاتل في هذه اللوحة يذوب وجداً وارتحالاً أخّاذاً في الأرض .. تقول القصيدة : ((صادته أنياب الرصاصة فابتسمْ / ما قال آه / لما تفجرّ في دمه / شوك الألمْ / حضن التراب / وقبَّل الأرض الحبيبة / ثم غنى / للبيادر / والسهول / وللروابي والقممْ / يا صوته / مثل الصلاة معمّداً / بالعشق / مرصوفاً بأشكال النغمْ / يا صوته / يا صوته / يا صوته جمع الملائك كلهم / ولصوته / اشتعل القمرْ)) ..

لننظر إلى هذا النبض الحيوي المتلاحق بكلّ معاني الخصب والنماء . الصورة تنسف المتوقع وترميه بعيداً . وتأخذ الأرض في تسطير ملحمتها الدافئة الرائعة حين تشدّ إليها الابن الذاهب بين ذراعيها ولهاً وعشقاً وعطاءً . في المسافة الأولى تبرز أنياب الرصاصة لتنهش اللحم والعظم والشريان ، وكان لهذه المسافة أن تمتدّ في تفجير شوك الألم والوجع ، كان لها أن تطلق من داخل هذا المقاتل المصاب صرخات طويلة تعبر عن مكابدته حرقة العذاب ، وكان لها أن تطويه في آهات لا تهدأ إلا مع هدوء الجسد النازف . ولكن نسفت كلّ هذه الصور وغابت في اللحظة الأولى ، تلاشت المسافة وانكسرت عند أثرها القاتل لا غير .

في المسافة الثانية ، وهي المسافة التي سيطرت على كل ألوان الصورة ، يبدأ النبض ، نبض الأرض والتراب والبيادر والسهول والروابي والقمم ، في الغليان . يبدأ كل ذلك من خلال الابتسامة الملاصقة للمسافة الأولى . لذلك تلتغي الآه وتنكسر أمام قوة هذا النبض الهائل المسيطر على المشاعر والأحاسيس . قد تلمح العين معركة بين طرفين ، أولهما الرصاصة وشوك الألم ، وثانيهما هذا النبض المتولد من كل موجودات الطبيعة الفلسطينية ، وينتصر الطرف الثاني مع بداية المعركة . ويتولد كل هذا التداخل مع فلسطين ، كل هذا الانفتاح على الأمل ، ويكون الغناء دافئاً معبراً مشرقاً من خلال هذه المسامات التي تشربت مباشرة دفء الأرض وخصبها .

من هنا الصوت المعمد بالعشق ، المرصوف بأشكال النغم ، الجامع للملائكة ، المشعل للقمر . هو صوت التوحّد مع الأرض بكل تفاصيل الروح والقلب والجسد ، صوت الفيضان بعشق ودفء لا يحدان . كأنما الأرض والتراب والسهول والروابي والقمم قد توحدت بصوت هذا الشهيد ، فخرج الغناء رائعاً استثنائياً نابضاً بالدفء والحياة .

في قصيدة أخرى للشاعر علي الخليلي حملت عنوان ((شجر)) نرى إلى تواصل في هذا التوحد المطلق بين الإنسان المقاتل والطبيعة الفلسطينية . قامة المقاتل ، وفي اجتماعها مع القامات الأخرى ، تصبح شجراً يتحرك ويثور وينبض بالحياة . هذه القامات / الشجر تفيض بالعطاء دون توقف ، ونقرأ :

((باركت قامته ، تفيض على ملامحنا ، وتمسح بقميصها القزحيّ / طاعمة وكاسية ، وواهبة تراث الأرض قاطبة / تدور وتنتهي في راحتيه / مقامها وطن الخلود / وسعيها أفق بلا حدّ / ورقصتها مزار العاشقين إذا اشتهت أرواحهم قبس المزارْ / باركت في يده جراح الانتظارْ / شجر هنا .. / شجر كثير ليس يعلوه الغبارْ / ينمو وينهض ضدّ آلهة الدمارْ / يدنو ويخترق الحصار / باركت من يده السلام على الديار / باركت صحوته التي انتشرت يماماً في البيارق والمناديل المطرزة القديمة)) ..

فالتداخل لا يأتي من خلال مسافة وهمية يفترضها الشاعر أو يضعها للتقريب بين صورتين يظهر على هيئة هذا الشجر الممتد والناهض والنامي . وفي الصورة الواحدة ، صورة هذا الشجر العملاق السريع الخطوات ، تبرز اليد المقاومة ، حاملة وقاذفة الحجر ، لتكون بداية ومحطّ تراث الأرض . كما تبرز القامة / الشجر لتكون الضوء والماء والهواء والشموخ واستمرارية الحياة . هنا يكون للشجر خاصيته في اللمعان والبريق والشمس القادرة على رسم النهار . وفي متابعة الانفتاح على هذا الشجر / القامات ، الشجر / المقاومة ، الشجر / قاذف الحجر : ((شجر كثير كله حلو الثمار / باركت في يده المدائن / والقرى ومخيمات الراسخين على الجذور ، من الكبار إلى الصغارْ)) .. لنقف على مساحة الشجر المليئة كلية بالعطاء الإيجابي الفاعل .

ومن بعد ينتقل الشاعر إلى مفصل الشجر بحالته المجردة ، حالته المفترض أن تكون دالة على كينونة الشجر الموجود في الطبيعة ، وإلى جانبه نجد الصخر والحجر والأعشاب . ولكن ماذا نجد عن هذه الأشياء من تراكيب نفسية وحسية وما إلى ذلك ... ؟؟

يقول علي الخليلي : ((من علّم الشجر الكلام / وعلم الشجر الكتابة والقراءة والصبابة في الشوارع والأزقة والقفار / من علّم الصخر المعتق حزنه ، وأباح في الحجر النهار / من علّم الأعشاب فتنتها)) ..

في الشكل الظاهر ، أو في المعنى القريب ، تصل إلينا الصور جميلة هادئة حافلة بالألوان الطبيعية المنسقة . ونقول في كلّ الانتقالات المتلاحقة إلى المشاعر والأفعال الإنسانية ، إنها جراء نظرة الشاعر إلى هذه الأشياء من خلال جموح في الخيال ، أعطى الكلام للشجر ، والحزن للصخر ، والفتنة للأعشاب . ولكن هل يكفي هذا الظاهر في فهم صورة تدخل في زمن الانتفاضة المليء بالنبض والتحدي والمواجهة ؟؟ ..

ألا نشعر خلال قراءة هذا الشعر بأننا أمام حالة وجد صوفية غريبة . ألا نشعر بأنّ هناك مسافة غير عادية من الاشتعال والنور في موجودات الطبيعة المذكورة . وإلاّ ما معنى أن يقول الشاعر كلّ ما قال في هذا الزمن الاستثنائي . لماذا تعلم

الشجر الكلام ، ومن علمه ؟؟ . ولماذا تعلم الصخر الحزن ، ومن علمه ؟؟. ومن أيقظ كل هذه المشاعر والأحاسيس في الأعشاب لتكون متقنة لفن الغواية والفتنة ؟؟

إنه الوجد كما هو واضح جلي ، الوجد الذي أخرج كلّ شيء عن خط سيره الطبيعي ، الوجد الذي حرك الجماد وسكب فيه كل المشاعر الإنسانية . في زمن الانتفاضة اشتعل هذا الوجد في الأشجار فرحاً وغبطة ، فتكلمت هذه الأشجار وخرجت إلى الشوارع والأزقة لتعلن حبها وفتنتها وروعتها . واشتعل الوجد في الصخر ، فنما فيه الحزن القديم واستطال ، متمنياً أن يكون حجراً نهارياً في أيدي الأطفال المقاتلين .. واشتعل الوجد في الأعشاب فأظهرت فتنتها وروعتها واستنفرت كل ما لديها من جمال . وكان المعلم في كلّ ذلك محصوراً بهذا الزمن المشتعل عطاء وثورة وعنفواناً .

ولكن ألا نجد أيضاً هذا التطابق والتوحد مع الإنسان المنتفض في كلّ هذه الموجودات التي امتلأت بالحركة والحب ؟؟ كما أسلفنا تبدو هذه الموجودات في كينونتها الطبيعية المجردة . ولكن انفتاح الصورة على هذا الشكل ، يجعلها أقرب إلى التداخل مع إنسانها الفلسطيني الثائر . فهي تتحدث وترقص وتظهر فتنتها ، من خلال حركته النابضة فيها . ويعود هذا التداخل والتوحد إلى درجته العالية من الظهور في قول الشاعر : ((شجرٌ هنا / شجر كثير راكض / شجر هنا / شجر هناك / مورّد الوجنات ، منتفض ، نبيّ ، شامخ / شجر يلملم بعضه بعضاً / ويرفع بعضه بعضاً / ويسند بعضه بعضاً / ويسمو ، كيف يعلوه الغبار)) .. حيث تعود القامات إلى الظهور متراصة متلاحقة في نبضها وخطوها وعطائها ، وتعود الأيدي لتهدم عتمة الليل بحجارة لا تعرف الهدوء . الشجر يعلن كينونته في هذه القامات ، والقامات تعلن كينونتها في هذا الشجر . ويكون الطريق إلى الشموخ هو الخطوة الواعدة المتلاحقة . وماذا بعد ؟؟.. هل كان على الشاعر أن يعود مرة أخرى إلى ملامسة أوتار قصيدة سابقة ، ليعزف لحناً جديداً للانتفاضة ؟؟ ..

قصيدة الشاعر حنا عواد ((وأفنى ليبقى الغناء)) تذكرنا بقصيدته ((كي يبقى شجر الزيتون)) حين يعود إلى معنى الفناء في سبيل إشراقة الحياة في الوطن ، وإن اختلفت القصيدة الجديدة بالكثير من المفاصل . فهو يبدأ في الغناء لصبح ندي ، لفجر بهي ، لهمس السهول ، زهور الجبال ، لزغرودة حلوة اللحن والجرس ، ولقدس الحجارة . ويستمر هذا الغناء عذباً ندياً طويلاً ، لكل هذا الوطن الناهض الرائع في ماضيه وحاضره ومستقبله . ولأنّ هذا الغناء مهدد من قبل الاحتلال ، فإنّ الشهادة سياج يحميه ، ويضيء له درب الغد : ((لموعد حب يهلّ / وبيدر حب يغل على أوف شبابة في الحواكير / وموسم خصب يطل على ((ميجنا وعتابا)) النواطير / لسحجة عز ودبكة مجد أمام المناطير / لمن يعزفون وهم يقطفون وهم يحصدون / بزفة قمح وتين وزيتون / لمن ينشدون وهم يرقصون على نفحات العصافير / أكتب شعري .. وأنثر فني .. أغني / وأمنح عمري / وأفنى ليبقى الغناء)) ..

فالغناء عند الشاعر في قصيدتيه ، انطلاق دائم نحو بعث الحياة والخصب في كل مفاصل الأرض والطبيعة ، إلى جانب الإنسان . إنه يمرر جسده في جسد الأرض لتنهض الحياة زهراً واخضراراً وثمراً ، ويسكب روحه على الطريق ، وفي كلّ الأشجار ، ليكون نسمة الحرية في كلّ بيت وشارع . وهو يشترك مع علي الخليلي في عشق كلّ موجودات الطبيعة إلى حدّ الذوبان فيها :

((أغني لهمس السهول ونبض الحقول / زهور الجبال تشق المحال / وتلك التلال تنادي : تعال)) ..

ثالثاً ـ التداخل مع المستقبل :

يقول الشاعر شكيب جهشان في قصيدته ((عندما تولدين)) إنّ النصر قادم لا ريب ، وعودة اللاجئين إلى ديارهم أكيدة .. لذلك ((عندما تولدين / سلمي لي على / إخوتي العائدين ..)) وإلى جانب التأكيد على العودة ، فهو في هذا المقطع القصير ، يشير إلى أن نفس الشعب الفلسطيني طويل ، وأنه مهما طال الوقت ، فالاستمرارية في النضال باقية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن كان هذا الجيل يعطي ويبذل ويضحي ، فمن أجل أن ينعم الجيل القادم بالحرية والخلاص .

في مقطع آخر ، يخاطب الشاعر هؤلاء العائدين ((أيها العائدون / سلموا لي على / أهلي الصامدين)) ليؤكد من جديد على النصر والعودة ، وطول النفس في الكفاح والمواجهة والتحدي . إنّ التفاؤل يترسخ ويكبر ، ليكون يقيناً في الفكر والوجدان . ومثل هذا اليقين نتاج صورة راهنة حافلة بالعطاء الكبير الواعد ((عزة البلد / وشموخ الذرى / أنت يا ولدي)) فكيف لا يكون الخطاب للعائدين حافلاً بكل هذا اليقين ؟؟ ..

في قصيدة أخرى للشاعر شكيب جهشان حملت عنوان ((أوقفوا هذه المجزرة)) نرى الكثير من مفاصل الأمل بالمستقبل من خلال الأمل بعطاءات الانتفاضة : ((أيها الإخوة الصامدون / أيها الزارعون على جبهة الشمس نبض الإباء / يداً بيد / سوف نبني الوطن / ويداً بيد سوف نلوي ذراع الزمن / أيها الإخوة الصامدون / يداً بيد يستفيق الربيع / وينتفض الكون حراً ، فيعتنق الكبرياء / أيها الإخوة الزارعون على جبهة الشمس نبض الإباء / ويداً بيد سندق مع الفجر باب السماء)) ..

والنظرة إلى المستقبل لا تتوقف مع كلّ خطوة يخطوها هؤلاء الصامدون ، إنهم يضعون كلّ خطوة على طريق هذا المستقبل الحافل بالصباحات المضيئة ((زائل .. زائل / همنا القاتل / والدجى زائل / طالع طالع / فجرنا الساطع / والسنا رائع / قادم قادم / غدنا الباسم / والثرى حالم)) .. ويكون التاريخ وما فيه من امتدادات ، خطوة تدعم الحاضر المشتعل نضالاً ، وتضيء للغد فرح الصباح : ((نحن في هذه الأرض جذر / ودهر / وسحر / ومهر / ونحن التراب / ونحن العذاب / ونحن الجواب / ونحن الزمان / ونحن المكان / ونحن الأمان / فيا هذه الأرض لن تستباحي / ويا فرح الدهر عند الصباح / ونحن معاً يا تراب الوطن / نتحدى المحن)) .

وفي خطابه للاحتلال ((أوقفوا هذه المجزرهْ / وأعيدوا لنا ريحنا العاطره)) حيث لن توقف كل الممارسات الإرهابية الفاشية، زحف الشعب الفلسطيني نحو الحرية ((نحن شعب الفدا / والعطاء الوفير ..)) .. فماذا يفيدكم كلّ هذا الاندفاع المجنون نحو برك الدم ، ماذا يفيدكم كل هذا القتل ، ما دمتم ترون شعب فلسطين وهو يتابع المشوار بثقة وقوة وثبات ؟؟ . لن توقفوا مهما فعلتم هذه الخطوات الجبارة العملاقة ..

ويعود الشاعر إلى ما أكده في قصيدته السابقة من الإصرار على النفس الطويل ، وحتمية الوصول إلى النصر في النهاية : ((تمعن القافله / والطريق طويل ، طويل / والظلام ثقيل ثقيل / أيها الإخوة السائرون / إننا واصلون)) ..

وفي توجيه الخطاب للاحتلال ، وبكل المواجهة والتصميم والتحدي ، تأتي قصيدة ((لن يرهبنا نسف البيت)) للشاعر محمود دسوقي الذي يقول : ((اعمل ما شئت / اهدم بيتي / اقتل أبنائي .. بنتي / لا . لن يرهبنا نسف البيت ..)) حيث الشعب في حركة دائمة إلى الأمام ، لن يوقفه أو يمنعه عن متابعة الطريق أي شيء مهما كانت وتيرة شدته . إنه الشعب الذي يمضي وأمام العين والقلب والروح شمس النصر القادمة ((فشعاع الفجر غدا يأتي)) ..

* * * * *

الفصل الرابع:

الانتفاضة وصورة الآخر

في صياغة السؤال حول صورة الآخر ، لا تأخذ الإجابة تغيراً أو تبدلاً من زمن إلى آخر ، أو من مرحلة إلى سواها . حيث تبقى ملامح جنود الاحتلال ، واحدة في صفاتها وأفعالها وبنيتها النفسية والجسدية والفكرية . وعلى هذا ، لا يمكن لنا أن نسلّم بإمكانية حدوث تحول طارئ يغير مجرى تفكير ونفسية هذا الجندي الذي ترسّخت فيه خلال سنوات طويلة ، ومن خلال تعبئة متواصلة ، كل دعاوى الصهيونية وطروحاتها الداعية إلى تجريد الإنسان العربي الفلسطيني من كل شيء ، وتحويله إلى مجرد رقم أو أجير في خدمة الصهاينة ، هذا إذا لم يتم قتله أو نفيه خارج أرضه .

إنّ مثل هذه التركيبة النفسية والفكرية ، والتي رأت ولمست هذا النهوض الفلسطيني الجبار في الوطن المحتل ، ما كان لها إلا أن تظهر عارية لتطرح صورتها الواضحة على الملأ . فأخذت تتضح بشكل سافر ، صورة الاحتلال البشعة والمليئة بكل شهوة القتل والتخريب والتدمير ، ليراها العالم كله بعد هذا الزمن الطويل ، على حقيقتها ودون أي قناع .

لقد استطاعت الصهيونية ، ولفترة طويلة ، تصدير صورة مزورة ومزيفة إلى العالم ، تقول إن ((إسرائيل)) هي واحة الديمقراطية والحرية والإنسانية ، وإنّها الضحية التي يسعى العرب إلى إنهائها في كل وقت . وجاءت الانتفاضة لتنسف كلّ ملامح وألوان وخطوط هذه الصورة ، ولتطرح الصورة الحقيقية عن ((إسرائيل)) ذات الوجه القبيح والتي لا تعرف لغة غير لغة القتل والتخريب والتدمير في كل وقت .

طرحت الانتفاضة على الملأ صورة الجندي الإسرائيلي المدجج بالسلاح وهو يطارد طفلاً فلسطينياً ليطلق عليه الرصاص ويرديه قتيلاً . طرحت صورة هذا الجندي وهو يكسّر أطراف هذا الإنسان أو ذاك ، ببرودة أعصاب منقطعة النظير . طرحت صورته وهو يدمر البيوت وينسفها غير آبه بأصحاب البيت الذين أصبح العراء منزلهم ومأواهم . طرحت صورته وهو يتفنن في تعذيب امرأة أو طفل أو شيخ . وطرحت صوراً عديدة ، تدلّ كلها على همجية الاحتلال التي لم يعرف العالم مثيلاً لها .

وتوضحت الصورة على حقيقتها ، وهي الصورة التي كانت كذلك منذ سنوات طويلة ، وإن عرفها العالم متأخراً ، وبعد أن ذاق الشعب العربي الفلسطيني من جرائها الويلات والنكبات والعذابات والجراح والآلام التي لا حدود لها . عرفها العالم ، بعد أن اكتوى الفلسطيني بالنار ، وبعد أن احترق آلاف المرات .

هذه الصورة طرحها الشعر الفلسطيني المقاوم منذ البدايات ، بعد أن عرفها الشاعر وخبرها وعانى من ويلاتها . وتابع هذا الشعر في زمن الانتفاضة رسم هذه الصورة والتحدث عنها ، من خلال تعاملها مع الحدث ومع الأهل الثائرين في وجه الاحتلال ، فبرزت الصور التالية :

أولاً ـ صورة الآخر أمام صاحب الحق :

في قصيدته ((العزم في أطفالنا المرد)) يقول الشاعر عبد الرحمن عواودة : ((عجب وإنّ عواءهم يعلو ويشتدّ / ودماؤنا في الأرض شلال / وبيوتنا تهوي وتنهدّ / عجب ... وإنّ سلاحهم رعد / وسلاحنا إيماننا الصلد / وصدورنا السمراء .. والودّ / ومن الصغار الصبية الولد / والذكريات .. شيوخنا تاريخنا / وتراثنا الزيتون والورد)) ..

حيث تبدو صورة المواجهة واضحة بين الحق والباطل .. هنا يضع الشاعر سلاح الفلسطيني ممتداً في الإيمان والصدور السمراء والحب ، والذكريات والتاريخ بما يحمل من أصالة وعمق ، وكلّ تفاصيل الشجر والورد .. والسلاح أيضاً هو هؤلاء الأطفال الذين جعلوا العالم كله ينظر إليهم بعين التقدير والإعجاب .. هذا السلاح يتحدى ويقف في وجه العواء والرعد ، يقف في وجه الاحتلال البعيد عن كل معاني الأصالة والتاريخ والصفاء .

وفي قصيدة للشاعر منيب فهد الحاج حملت بعنوان ((هذي انتفاضتنا شعاع من نهار)) تظهر الصورة واضحة جلية ، حيث يقول : ((يا أيها المأفون مارس كل أصناف الجنون / مارس جميع فنون بطشك لن نذلّ ولن نهون / لا لن نخاف السجن ، لن نخشى المنون / وانشر جرادك والعيون .. فلن نخون / لا .. لن نلين)) .. ويتابع : {{ جرجر ذيولك وانقشع عن أرضنا / يا أيها الباغي الدخيل / هذي انتفاضتنا سيعقبها صهيل / بل صهيل / ستحطم القيد الثقيل / تروي لمظلوم غليل / هذي انتفاضتنا تكحل فجرها الزاهي الجميل / هذي انتفاضتنا تصيح : ((ليل الطغاة إلى زوال)) ..

إذا نظرنا إلى صورة الاحتلال بكل ما تحمل من حقد وهمجية وشهوة إلى الدم ، أمام صورة الإنسان الفلسطيني صاحب الحق القوي القادر على الوقوف والثبات من خلال إيمانه بنهاره القادم . نجد أن صورة الاحتلال عارية من كلّ صلة مع الأرض العربية الفلسطينية ، أمام صورة الإنسان الفلسطيني المتداخل والمتلاحم مع كل حبة تراب من هذه الأرض . تقف صورة الاحتلال العارية من أي علاقة مع الزمن القادم ، أمام صورة الفلسطيني المرتبطة مع كل امتدادات الزمن في الماضي والحاضر والمستقبل .

وطبيعي أن تكون صورة الاحتلال ضعيفة واهية لاهثة ، رغم كل ما تملك من أسلحة وقوة وقدرة على البطش والتنكيل والتعذيب . كما هو طبيعي ، أن تظهر صورة الإنسان العربي الفلسطيني قوية متماسكة قادرة ، رغم أنها لا تملك من السلاح غير الحجر ، ولكنه الحجر المدعوم بقوة الحق والأصالة والتاريخ .

ثانياً ـ صورة الآخر في مواجهة الكابوس :

في قصيدته ((أحلام طاغية)) يقف الشاعر د. سليم مخولي مصوراً ما يجول وما يمر في أحلام ويقظة العدو الصهيوني ، مبتدئاً على لسان هذا الطاغية : ((لست أدرى أي حلم كان هذا / أي شؤم لست أفهمْ / كل شيء كان مبهمْ / لست أدري ما اعتراني / أي كابوس أتاني / فكبا تحتي حصاني / ورماني / في قفار من متاهات جهنم / وإذا الشمس خراب وضباب / وتراب الأرض جمر وحراب / وغراب عند بابي / وركام وحفر / أي شر كان هذا / أي حلم مرّ في لمح البصر ..)) ويرى هذا الطاغية / الاحتلال : الجموع تعبر الأفق ، وجبال من غيوم تزحف فوق صدره .. ويحار ((هل أنا في يقظة / أم في حضيض النوم أحلم / لست أفهم)) .. وطبيعي أنّ الاحتلال لا يريد أن يصدّق ، هو يعيش واقع الانتفاضة ويفرك عينيه محاولاً تكذيب ما يرى .. والصورة تتحرك بسرعة ، فيلجأ إلى وهمه أو توهمه بأنها

مجرد حلم أو كابوس .. هو يذكر ((كنت أمشي فوق نهر من دماء / وصخور الأرض طارت / كشظايا في الفضاء ..)) ويكون الاعتراف :

((يا مفاهيمي التي ـــ للبطش / جيلاً بعد جيل / أسعفيني .. / يقظتي حلم طويل)) .. وينتقل الطاغية إلى رسم ملامح صورته :

((فاسمعوني / أحرق الدنيا ، ومن يأبى سماعي / أطلق النار على كل صغير وكبير / لا أراعي / إنّ لي ميراث أرض / وحدودي حيثما امتدت ذراعي / وذراعي من حديد سلطوية)) ..

ويقارن بين صورته وصورة الثائر الذي وقف مارداً في وجهه : ((دمنا مسك وطيب / دمهم حبر وماء / نحن أسياد وهم .. / خصية في باب قصري وإماء / فاكتبوا عني كثيراً / وتغنوا بصفاتي الحضريه / مجدوني / ودعوني أتجلى بقواي العسكريه)) ..

ورغم كلّ هذه العنجهية ، يستطيع هذا الطفل أن يعيده إلى الكابوس : ((غير أني لست أدري .. لست أفهم / رغم علمي وفنوني / وجنودي وجنوني / رغم سيفي ودروعي / وانتصاراتي وبطشي ومفاهيمي القويهْ / لست أفهمْ / أي سر يجعل الطفل معمم / وتبسم / حين أقدم)) ..

ثالثاً ـ صورة الآخر والفاشية :

في قصيدته ((الجنرال جواهر لال)) يقول الشاعر سلمان مصالحة : ((في العام الألف / وقرون تسعه / وثمان بعد العقد الثامن / والتاسع يأتي بعد شتاء / خلف غيوم الزمن الأصفر / ولد الجنرال جواهر لال .. / ليس كباقي الجنرالات كباقي العسكر / ليس بأنس / ليس بجان / يا سفراء الألم : اقتربوا ..)) ..

فمن هو هذا المخلوق العجيب جواهر لال الذي ولد عام 1988 . هل هو إلاّ ((جواهر)) الاحتلال التي تبدت في أجلى صورها وأبرزها في هذا الوقت تحديداً ؟؟ .. هل هو إلاّ ((قمة)) الوصول إلى الهمجية والعنف والفاشية .. ولكن هل هو مختلف عن بقية الجنرالات والعسكر ؟؟ ربّما هو مختلف عن بقية الجنرالات والعسكر في العالم ، وليس عن جنرالات وعسكر الاحتلال .. ولكنّ الشاعر يراه مخلوقاً عجيباً مختلفاً في أشياء كثيرة عن سابقيه من جنرالات وعسكر الاحتلال .. ونكمل الصورة : ((ذهل القوم لهذا الخلق / حملوا الطفل على الأكتاف / وراحوا .. راحوا .. صوب الكهنه / يا حكماء الزمن الحافي / ما ترويه علينا الكتب)) ..

هذا المخلوق إذن يدهش ويحير حتى هؤلاء القتلة .. ونتابع :

((بين يدي رؤساء الكهنه / وضع الجنرال جواهر لال / غير سميع بالأصوات بهرج الجلبه / غير مبال .. / وقف الكاهن رأس القوم / طلب خروج الناس قليلاً / كي يستحضر روح الطفل / ضرب الكاهن بالأحجار / خطّ قليلاً فوق الرمل / همل الغيم من العينين / حتى لفظ على الأجواء : / ترانسفير / ومضى يضرب بالكفين)) .. ويأتي كلام الكاهن : ((هذا المسخ سليل حروب / منذ تغنى القرد بوطن)) .. وتكون النهاية : ((في العام الألف / وقرون تسعه / وثمان بعد العقد الثامن / يمشي الكفر على رجلين / يحمل عقلاً في قبضته .. وفي جزمته / يركل باب النفس / وبنعل صنعت

من علم محكم / طبعت في جسد الإنسان علامه / يخرج من قلب جريده / ويعشش في الكلمات / ويرش الروث على الطرقات / ليغذي النفس الروث / ويصير الروث عقيده)) ..

هي إذن صورة الاحتلال في آخر ما وصل إليه من تطور في تحكيم الفاشية لتصبح سائدة دون تراجع . ونصل مع الشاعر في مقطعه الأخير لنقف مباشرة أمام وضوح أو بروز صورة هذا المسخ العجيب . إنه الاحتلال بكلّ ملامحه الفاشية المعروفة ، والآخذة في التضخم والانتفاخ . لا يبتعد ((جواهر لال)) في هذا المقطع ، إلا ليظهر فعلاً وممارسة في كلّ الوجوه والأيدي والخطوات الصهيونية المنتشرة وباء وعنفاً واغتصاباً على أرض فلسطين العربية . وهو في الواقع كما في هذا المقطع : كفر يمشي على رجلين ، عقل في القبضة والجزمة ، عقيدة لا تخرج عن كونها روثاً يرشّ في كلّ مكان ..

رابعاً ـ صورة الآخر ووهم الضمير :

في قصيدة ((رسالة من جندي في المعركة إلى والده)) يرسم الشاعر شكيب جهشان صورة فردية خاصة لواحد من جنود العدو أثناء ملاحقته وقمعه لأطفال فلسطين . والصورة المفترضة أو المرسومة تقول إنّ هذا الجندي يشعر ويكاد يرفض هذه الممارسات الوحشية المرتكبة بحق هؤلاء الأطفال الذين يقاتلون من أجل حرية أرضهم . ولكنّ كلّ هذه المشاعر تبقى في حالتها السلبية السكونية ، فهذا الجندي يمضي كسواه في اللعبة الدموية الفاشية . ويبقى له هذا الحيز من المشاعر التي تعتبر غريبة وبعيدة عن سواه من جنود الاحتلال .

الجندي يبدأ رسالته الموجهة من بيت لحم بالقول : ((أبتي العزيز / في بيت لحم أنا / أكسّر تارة أيدي الصغار / وتارة أغتال أفراح الكبار / وتارة ألهو بإيقاع الأزيز / أبتي العزيز / لكنهم لا يرهبون الموت يا أبتي / ومثل فوارس الميدان / ينطلقون في شوق النضال / إلى المحال / قدر الرجال ..)) .. لنكون أمام جندي لا تختلف أفعاله الفاشية الإجرامية عن سواه من جنود الاحتلال ، فهو وان كان سينقل لنا بعض المشاعر المغايرة فيما بعد ، لا يخرج عن كونه صورة أو نسخة من الآخرين . إنه يكسر الأيدي ويغتال الأفراح ، ويلهو بإيقاع أزيز الرصاص . فكيف لنا أن نأخذ مشاعره على محمل الجد . كيف لنا أن نصفها بالإنسانية ، بعد أن نسفتها الأفعال الفاشية الحاقدة منذ البداية . وهو مثار بعد ذلك ، لأنّ هؤلاء الأطفال لا يخشون الموت ، رغم كل آلية الحقد والقتل والتدمير والتشويه .. إنهم ينطلقون في شوق إلى النضال ، وهي صورة مفروضة شاء هذا الجندي أم أبى ، مفروضة بكلّ ما فيها من بطولة وإقدام وشجاعة .

تأتي بعد ذلك مشاعر هذا الجندي المعبرة عن دهشته اللامنطقية ، فهؤلاء الأطفال بكلّ ما يحملون من معاني الطفولة : ((ليسوا وحوشاً يا أبي / هم يا أبي بشر / يحبون الحياة والانتصار / هم مثل كل الناس يا أبتي / يحبون النهار)) حقيقة يعرفها هذا الجندي حق المعرفة ، مثلما يعرفها سواه ، ولكنه يتعامى عنها كما يتعامى الآخرون . وينسى في لحظات دهشته المصطنعة ، أنّ الوحشية ملتصقة بالاحتلال ، وبأفعاله التي ذكر بعضاً منها في بداية القصيدة . وفي مقطع لاحق يقول : ((وأنا هنا في بيت لحم / أشلّ أطراف الصغار / وأنا هنا في بيت لحم السوط / والتابوت / يا أبتي /

وزوبعة الدمار)) هنا الوحشية الواقعية . أما أن يكتشف هذا الجندي متأخراً ، أنّ هؤلاء الأطفال ليسوا وحوشاً ، وأنهم بشر يحبون الحياة والنهار ، فهذا هو الغريب العجيب .

وتبقى القصيدة في مجملها على هذا المنوال من التصوير لأفعال هذا الجندي التي تشترك مع أفعال الآخرين في وحشيتها وفاشيتها ، ولمشاعره التي تستيقظ لتنظر بعين شبه مغمضة إلى الحقائق الناصعة .. إنه الجندي الذي يقتل ويذبح ، وبعدها يصيح : كل هذا خطأ ، ليعود من جديد إلى لعبته الدموية .. !!

* * * * *

من قصائد الانتفاضة

علي الخليلي:

شجر

باركت قامته ، تفيض على ملامحنا ، وتمسح يومنا بقميصها القزحيّ
طاعمة وكاسية ، وواهبة تراث الأرض قاطبة
تدور وتنتهي في راحتيه
مقامها وطن الخلود
وسعيها أفق بلا حدّ
ورقصتها مزار العاشقين إذا اشتهت أرواحهم قبس المزار
باركت في يده جراح الانتظار
شجر هنا ..
شجر كثير ليس يعلوه الغبارْ
ينمو وينهض ضدّ آلهة الدمارْ
يدنو ويخترق الحصارْ
باركت من يده السلام على الديار
باركت صحوته التي انتشرت يماماً في البيارق ، والمناديل المطرزة القديمة
والرضا الريان فينا ، حين وقفته الفتية ، قبل أن يقف الرضيع
على بقية مهده ، في بيته المنسوف ،
قبل هتافنا الملهوف ،
يا قمر البلاد
وقبل أن يصفو القرار
باركت جثته تفزّ على مدامعنا
وتنبض بالأناشيد الندية
أين فارقت العيون إذن
وهل ألقت على دمنا الستار
شجر هنا

شجر كثير كله حلو الثمار
باركت في يده المدائن والقرى ومخيمات الراسخين على الجذور ،
من الكبار إلى الصغار
من علم الشجر الكلام
وعلم الشجر الكتابة والقراءة والصبابة في الشوارع والأزقة والقفار
من علمك الصخر المعتق حزنه ، وأباح في الحجر النهار
من علم الأعشاب فتنتها
ومن أعطى الضحية نجمها الأعلى
ومن دقّ الجدار على الجدار
شجر هنا
شجر يقوم ويفتح الأبواب والأسرار
سيدتي تصلي
ثم تزرع وردة أخرى
وتزرع حنطة أخرى
وتزرع أمة أخرى
وتبعثني لأبعثها جديداً
في بلاد الله ، ناهدة
وشاهدة
وأسكت ، هذه لغة الفخار

ـ لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة
أيها العالي ومن ملك اللآلئ والمحار
في أعمق الأعماق من بذر البذار
من أطلق الأشواق من فكّ الإسار
من نظم الفقراء زلزلة
ومن فرش الضلوع على الضلوع ، معابر الثوار
للثوار أنت
وهذه الصحراء ممطرة
وهذا الساكت الساهي شرار

باركت جمرته من الرمل العتيق

ومن بقايا المطفأين

على بقايا اللاجئين

على بقايا العاطلين

على بقايا المعدمين

على بقايا الثائرين

على بقايا الساهرين بلا سراج أو منار

في أرض كنعان القديم

وفي قبور الأولين

وفي قبور الآخرين

وفي سبات الانكسار

باركت نصرته تناسلت انتصاراً ، بانتصار

من أول الأرض التي بدأت بخطوته ، لآخرها على يده مدار

شجر هنا ،

شجر كثير راكض

شجر هنا ،

شجر هناك

مورّد الوجنات ، منتفض ، نبيّ ، شامخ

شجر يلملم بعضه بعضاً ،

ويرفع بعضه بعضاً ،

ويسند بعضه بعضاً ،

ويسمو ، كيف يعلوه الغبار

باركت من يده الندى

وشربت من يده المحبة والسلام

أن المشرّد

والمطارد

والممزق

والمعتق في الجرار ، بلا جرار

وسكتّ قبل الفجر ، حين لمسته ،

هل سيدي قد نام ، زلزلني انفجار

لا صوت يعلو ..

فاكتفى

المصطفى

يده الرضا

والصبح يرفل تحت قبلته السنية

مدنفاً

الآن ، سيدتي ، لقد ((هلّ الغلام))

وعرشت في سلّة الفقراء ألوان الثمار

شجر هنا

شجر كثير في الديار.

31 /1 /1989

* * * * *

هايل عساقله:

أبدعت أكثر

أبدعت أكثرْ ..

أبدعت أكثرْ ..

لما رفعت الشمس أكثرْ

والقمح أكثرْ

والسرو أكثرْ

ونسجت من فمك المدوّرْ

قمراً على باب الخليل

ونجمة ..

غمرت مداخل " بيت أمّرْ "

يا أيها الولد الموزّع

بين مدرسة وبيت

بين بوليس

ومعتقل

وعسكرْ

يا أيها الولد الذي ..

قطع المسافات الطويلة ،

ما تعثرْ

وبكفهِ ..

أعلى جبين الأفق أكثرْ

يا أيها الولد المطوّق

بالحواجز ،

والمدافع ..

يا أيها الولد المحاصر

في الأزقة

والمقاهي ،

والشوارع

أبدعت أكثر

لما تقحّمت الردى

والخطب ..

والجيش المقهقر

وقذفتهم

وعبرتهم ..

وقطعت كل مسارب الدنيا

ويومك ما تأخرْ ..

وقطعت كل حواجز الدنيا

وأمسك .. ما تأخرْ

وقطعت كل شوارع الدنيا

وخطوك ما تأخرْ ..

ما اسم الفتى ! سألوك

سألوك في صلف ،

وفي حقد تجذرْ

فرددت في عنف البطولة

ورددت في نزق الطفولة

اسمي أنا .. لا فرق

دورا

اسمي أنا ـ لا فرق

غزه

والخليل

وبيت أمّر ..

ولد خطير ،

كالزلازل

كالعواصف ..

بل وأخطر

ولد يحث خطاه فوق اللغم

يرسم دولة ، وفراشة ..

وطيور خضر ..

وإذا سألتم ..

فالتراب هويتي ..

إن نمت كان وسادتي

ومتى صحوت حملته ..

لغماً لأدخله عباءة سادن

وثياب قيصرْ

وصفوك في كل المجلات القبيحة ،

والجميلة

ذكروك في كل المقالات الطويلة

وصفوك ، لكن زوّروا

كذبوا لأنك ..

من جميع رجالهم أبدعت أكثرْ
كذبوا لأنك
من جميع كلامهم أبدعت أكثر
وتكسّرت أحلامهم
وسرابهم ..
لما رفعت الأرض نحو الشمس
يا ولد المخيم ..
والأزقة ..
قد تبخر ..
أبدعت في درس الحساب
لكن بدرس الثورة الحمراء ..
قد أبدعت أكثر ..
أبدعت في درس القراءة ..
والرياضة ..
لكن على درب الرجال ..
وفي طريق الانتفاضة ..
أبدعت أكثر ..
وحملت فوق الظهر بيتاً
والخليل ..
وبيت أمرّ ..
وخطوت أكثر
ومشيت أكثر
أبدعت أكثر من جميع كلامنا
أبدعت أكثر
أبدعت أكثر من جميع رجالنا
أبدعت أكثر
أبدعت أكثر
فارفع جبين الشمس أكثر ..
والسرو أكثر

والقمح أكثر ..
وارفع جبينك أنت أكثر.

3/ 6/ 1988

* * * * *

شكيب جهشان:

عندما تولدين

عندما تولدينْ
سلمي لي على
إخوتي العائدينْ

**

طالع من حجرْ
غدنا المرتجى
والأغاني الأخر

**

عزّة البلّد
وشموخ الذرى
أنت يا ولدي

**

خفقة السنديان
وحنين الربى
قصتي من زمان

**

كان مثل الجواد
يستبيح المدى
والرزايا الشداد

**

باقة من ضياء

أم رفيف الشذا

سيد الشهداء

**

فتية كالنور

يخضبون الثرى

بالفداء الجسور

**

فاجر فاجر

يستغيث الملا

وأنا الداعر

**

لم أنم من زمن

ضعت بين الردى

وانذباح الوطن

**

أنت أرديتني

عامداً .. عامداً

ثم شوهتني

**

كنت أرجو علاه

مارداً ، مارداً

فأراقوا دماه

**

ريحة الأنبياء

واستباق العلا

نحن ملء الفضاء

**

من ترى علمك

أيها المفتدى

أن تهزّ الفلك

**

أيها العائدون

سلموا لي على

أهلي الصامدين

21/ 4/ 1989

* * * * *

منيب فهد الحاج:

أجمل الأحلام

حلمت أنّ نخلة في أرضنا نمت

ما هزّ جذعها خطر

فأصبحت باسقة فروعها

كريمة الثمر

معطاءة الرطب

جذورها عميقة تغوص في الثرى

حيث الدم الطهور ينسكب

من سالف الأيام والحقب

تناطح السحاب والغيوم

وفوقها تألقت شمس وخيمت نجوم

تصافح القمر

والمجد في سمائها يحوم

حلمت أنّ نخلة جادت بها يد القدر

يرتاح في ظلالها مشرّد

من بعد أن أرهقه السفر.

11/ 11/ 1988

* * * * *

نايف سليم:

قصائد : 13/ 4/ 1988

وظل يخفق العلم

الريح حين استيقظت
رأت أمامها العلم
فابتهجت ، وبعد رقصة الصباح
رتلت : انشودة العلم
فانفعل الجنديّ هستر الجنديّ ،
واعتلى على العامود ، ينزل العلم
فانصعق الجنديّ
والأفق الغربي ،
والعامود حوله ابتسم
وظل يخفق العلم.

* * *

حرارة

كان الشتاء لافحاً وقارس
حموا الشتاء ، أغلقوا المدارس
ولاحقوا الأطفال ،
حتى أصبح الأطفال ،

رجال .

* * *

غيم الصيف

الشيخ ((عبد الله)) من جنين
دبّوه ،
عن سطح داره ، على حجارة
الطريق
فانكسرت جمجمته
وانسمعت تمتمته :
ـ قبل الوفاة ـ
يقول للطغاة :
نحن هنا نظل مزروعين
فداء هذا الوطن المحتل
وأنتم سترحلون
سترحلون ، مثل غيم الصيف ،
أو أذلْ .

* * *

محبة

ما يأسوه
ما قلعوا من قلبه محبة الأطفال
كأنهم حثّوه ،
صار يعبد الأطفال ،
ـ رغم أنهم ، وربما لأنهم ـ
قتلوا له وحيده " جمال "
وأثكلوه

صار يرى أطفالهم كإخوة لطفله
يدعو لهم من قلبه
ـ من يومها ـ وما يزال ،
يعلو وجيب قلبه ،
حين يرى الأطفال .

* * *

مقاومة

أسروا " صلاح الدين " حاقدين
على اسمه المفخم .
ونقبوا بالفشك المدمدم ،
عن قلبه
وثقبوه
وأسكتوا وجيبه
وفتشوه
ما وجدوا في جيبه ،
إلا العلم
وصورة الحبيبة ،
غارقة بالدم .

* * *

النهاية